سِلْسِلَةُ: مِنَ الْقُرْآنِ إِلَى الْعُمْرَانِ (٣)

مَفْهُومُ الْعَالِمِيَّةِ

مِنَ الْكِتَابِ إِلَى الرَّبَّانِيَّةِ

دراسة في مفهوم العلم وصفة العالمية
وظيفةً وبرنامجاً من خلال وصية
أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي رحمه الله
(ت: ٤٧٤هـ)

فَرِيد الأَنْصَارِي

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

سِلْسِلَةُ: مِنَ الْقُرْآنِ إِلَى الْعُمْرَانِ (٣)

مفهوم العالمية

من الكتاب إلى الربانية

دراسة في مفهوم العلم وصفة العالمية
وظيفةً وبرنامجاً من خلال وصية
أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي رحمه الله
(ت: ٤٧٤هـ)

تأليف
فريد الأنصاري

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية – إدارة الشئون الفنية

الأنصاري ، فريد .
مفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية : دراسة في مفهوم العلم وصفة العالمية وظيفة وبرنامجا من خلال وصية أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي / تأليف فريد الأنصاري . – ط ١ . – القاهرة ؛ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠٠٩م .
٢٤٠ص ؛ ٢٠سم .
تدمك ٧ ٧٤٤ ٣٤٢ ٩٧٧
١ – الإسلام – تراجم .
٢ – الفقه الإسلامي .
أ – العنوان .

٩٢٢,١

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

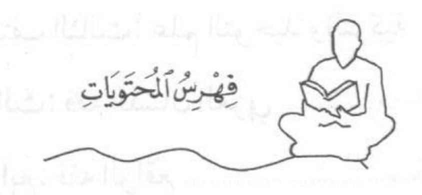
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجا لعقد لثلث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية : القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية - مدينة نصر . هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٠٠٢٠٢) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٠٢٠٢)
المكتبة (١) : القاهرة - ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي . هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٠٠٢٠٢)
المكتبة (٢) : القاهرة - ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس مدينة نصر . هاتف : ٢٢٤٠٥٤٦٤٢ (٠٠٢٠٢)
المكتبة (٣) : الإسكندرية - ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي - بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ (٠٠٢٠٣) - فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٠٢٠٣)
بريديا : ص.ب ١٦١ الغورية . الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾

[آل عمران: ٧٩]



مُقَدِّمَة ٩

الفَصلُ الأوَّلُ: **أبو الوليد الباجي ووصيته**

المطلب الأول: في شخصية أبي الوليد الباجي ٣٣

المطلب الثاني: في العناصر الأساسية للوصية ٤٤

الفَصلُ الثَّاني: **في مفهوم « العَالِـم » و« العالمية »**

١- الملكة الفقهية ٦٢

٢- الربانية الإيمانية ٦٥

٣- القيادة التربوية الاجتماعية ٧٥

الفَصلُ الثَّالِثُ: **الأصول الأربعة للعلوم الشرعية**

الأصل الأول: نصوص الوحي ٨٩

الأصل الثاني: العلوم الشرعية ٩٢

الصنف الأول: علوم القرآن والسنة ٩٢

الصنف الثاني: علم الفقه وأصوله ١٠١

الصنف الثالث: علم التوحيد والتزكية ١١٤

الأصل الثالث: فقه اللسان العربي ١٢٣

الأصل الرابع: فقه الواقع ١٣٣

الفَصْلُ الرَّابعُ: **برنامج العَالَمِيَّة**

تمهيد: في منهج الدراسة ١٤٧

مواد البرنامج مرتبة حسب أصولها ١٥١

ملاحظات منهجية ١٨٣

خاتمة حسنى ١٨٥

(ملحق): نص وصية أبي الوليد الباجي

مُقَدِّمَة ١٩٥

حرص الإمام الباجي على ولديه ١٩٦

وصية عامة بهذا الدين ١٩٧

أقسام الوصية

القسم الأول: ما يلزم من أمر الدين ١٩٩

الحث على طلب العلم ٢٠٢

القسم الثاني: ما يلزم من أمر الدنيا ٢١٢

التحذير من الدنيا وحطامها ٢٢٠

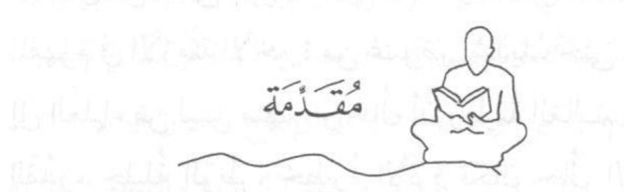
ضوابط صحبة السلطان وتقلد الولايات ٢٢١

خَاتِمَة ٢٢٥

المصادر والمراجع ٢٢٧

نبذة عن المؤلف ٢٣٣

***



مُقَـدِّمَة

إن الحمد للّـه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللّـه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده اللّـه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا اللّـه، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في اللّـه حق جهاده؛ حتى آتاه اليقين.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب اللّـه تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أعاذنا اللّـه منها ومما يقرب إليها من قول أو عمل.

ثم أما بعد:

- فهذه رِسَالَةٌ في مفهوم « العالِـميَّةِ » - وَظِيفَتِها وبَرْنَامِجِها - نُصْدِرُهَا اليومَ - بحول اللّـه - ضمن سلسلتنا الدعوية: (**مِنَ القُرْآنِ إِلَى العُمْرَانِ**)، قَصَدْنا فيها بيانَ حقيقةِ هذه الصِّفَةِ - بمعناها الشرعي - في الإنسان؛

للتحقُّقِ من معنى كونِه « عَالِـمًا »؛ وذلك لِمَا اكْتَنَفَ هذا المفهومَ في الأزمنة الأخيرة من غموض شديد، حتى انتسب إلى العلماء من ليس منهم. والحالُ أنَّ وظيفةَ العالِـم عظيمةُ القَدْرِ، جليلةُ الوَطَرِ، خطيرةُ الأثَرِ؛ فكان حالُ الأدْعِياءِ معها كمن تَطَبَّبَ وهو جَاهِلٌ، وقاعدةُ الفقهِ المشهورةُ تقضي بأنَّ: (مَنْ تَطَبَّبَ وَهُوَ جَاهِلٌ فَعَلَيْهِ الضَّمَانُ).

- هذا؛ وإنما الداعي إلى تأليف هذه الرسالة أربعة أمور:

الأول: أَنَّهُ ثَبَتَ بالنصوصِ الشَّرْعِيَّةِ الكثيرةِ - المتواترةِ المعنى - أنَّ تجديدَ الدِّينِ إنما يبدأ بتجديد « العِلْمِ »؛ فوظيفةُ النَّذارَةِ إنما هي مَنُوطَةٌ بأهلِ العِـلْمِ والفِـقْهِ في الدِّين، وذلك قول اللَّـه تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وعلى هـذا يُفْهَـمُ معنى (أُمَّة)؛ تلك المأمورة بـ « الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر » في قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فبمقتضى الأمر (بالتفقه في الدين) - الوارد في آية (التوبة) قَبْلُ بصريح قصد النذارة - يكون مصطلـح (أُمَّة) هنا دالًّا على معنى (أُمَّةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ)؛ للعلة الجامعة بين السياقين في القصد والوظيفة؛ ولذلك

قال سبحانه في موطنٍ آخر: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقُرِئَتْ: (تعلمون الكتاب) - كما هو معلوم - وهو أوضح لما نحن فيه.

ومن هنا كانت وظيفةُ الأنبياء التربوية والدعوية قائمةً على العِلْمِ والتَّعْلِيم، وآيةُ (وظائف النبوة) الواردة في أكثر من سياق من كتاب اللَّـه دالةٌ على هذا، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ ولهذا لم يكن عبثًا أن يقرر الرسولُ ذلك بما يشبه الحصر، في قوله ﷺ: « **إِنَّ اللَّـهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلاَ مُتَعَنِّتًا؛ وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا** »[1]، ولم يكن عبثًا - أيضًا - أن جعَلَ سِرَّ وِراثَتِهِ في خصوص (الْعُلَمَاءِ)، كما ورد في قوله ﷺ الحاسم للمسألة: « **إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ** » مما جاء في سياق تقرير مَرْكَزِيَّةِ العِلْمِ، من حديثه الصحيح المليح الذي سيأتي تفصيله قريبًا - بحول اللَّـه - وبهذا كان (العِلْمُ) هو بَدْءَ كُلِّ شَيْءٍ في الدِّين، وهو أساسَ كُلِّ حَرَكَةٍ في الدعوة إليه؛ تربيةً وتزكيةً.

وعليه؛ فـ (الْـمُجَدِّدُ) المذكور في قوله ﷺ: « **إِنَّ اللَّـهَ** -

---

(١) رواه مسلم عن عائشة مرفوعًا.

تعالى - **يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا** »[1]، لا يكون إلا عَالِـمًا، ولكن بما سيتحدد لمفهوم (العِلْمِ) من معنًى شموليٍّ بهذه الرسالة - إن شاء اللّـه - ومن هنا آل أَمْرُ تجديدِ الدِّين إلى أمرِ تجديد (العِلْمِ)، كما قررناه ابْتِدَاءً، وهذا لا يكون إلا بعد ضبط مفهومه، وتحديد غايته ووظيفته؛ للتحقق من معنى (الإرث النبوي) في الحديث العظيم، المشار إليه آنفًا، مِنْ قوله ﷺ: « **مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْـمًا سَلَكَ اللَّـه بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْـجَنَّةِ، وَإِنَّ الْـمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ؛ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ العالِـم لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الماءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العالِـم عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ** »[2].

فأيُّ إِرْثٍ هذا وأيُّ عِلْمٍ؟ ولن نذهب في التساؤل بعيدًا؛ فَلِأَبِي هريرة رضي الله عنه إشارةٌ لطيفةٌ في هذا السياق، مِنْ مُبَادَرَةٍ تربويةٍ عجيبةٍ ذاتِ طابعٍ تعليميٍّ، قام بها هو شخصيًّا؛

(١) رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة، وصححه الألباني، حديث رقم: (١٨٧٤) في صحيح الجامع.

(٢) رواه أحمد، وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان، عن أبي الدرداء، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: (٦٢٩٧).

لتوجيه جيل التابعين، وذلك (أنه رضي الله عنه مَرَّ بسوق المدينة، فوقف عليها، فقال: يا أهلَ السوق، ما أَعْجَزَكُمْ؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك مِيرَاثُ رَسُولِ اللَّـه ﷺ يُقَسَّمُ وأنتم هاهنا، أَلَا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سِرَاعًا، وَوَقَفَ أبو هريرة لهم؛ حتى رجعوا، فقال لهم: مَا لَكُمْ؟ قالوا: يا أبا هريرة، فقد أَتَيْنَا فدخلنا فَلَمْ نَرَ فيه شيئًا يُقَسَّمُ، فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في المسجد أحدًا؟ قالوا: بَلَى، رأينا قومًا يُصَلُّونَ، وقومًا يقرؤون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلالَ والحرامَ، فقال لهم أبو هريرة: وَيْحَكُمْ، فذاكَ مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ ﷺ)[1] فكيف هو ذلك الميراث على التفصيل؟ من صلاةٍ وقرآنٍ وأحكامٍ..؟ وكيف العِلْمُ به؟ وكيف يكون تنزيلُ حقائقِه في زماننا هذا تربويًّا ودعويًّا؟ وعلى أي منهاج؟ وعلى أيِّ صِفَةٍ يكون العِلْمُ به مُجَدِّدًا للدين؟ ثم ما المِقْدَارُ الكافي منه لإضفاء صفة (العالِـمِيَّةِ) على حامله؟

الثاني: موتُ عددٍ كبير من علماء الجيل الماضي، في المشرق والمغرب، والحالُ أَنَّ خَلَفَهُمْ - ممن انتسب إلى العلم - دونهم بكثير علمًا وخلقًا، وقد فقدنا في المغرب مِنْ أساطين

(١) رواه الطبراني في الأوسط، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب: (١/ ٥٨)، وأبو بكر الهيثمي في مجمع الزوائد: (١/ ١٢٤)، كما حسنه الألباني في صحيح الترغيب رقم: (٨٣).

العلم الكثير، رحمة اللّـه عليهم جميعًا، وهم أشياخنا وأشياخ أشياخنا؛ من أمثال: الشيخ العلامة أديب الفقهاء عبد اللّـه كنون، وشيخ المفسرين المغاربة العلامة محمد المكي الناصري، والعلامة المحقق محمد بن عبد الهادي المنوني، ومسند القراءات القرآنية بالمغرب العلامة الحاج المكي بن كيران، وحجة المذهب المالكي خاتمة علماء القرويين العلامة عبد الكريم الداودي، ومُحَدِّث المغرب العلامة الحافظ عبد اللّـه بن الصديق الغماري، وعالم سوس الكبير الشيخ جبران المسفيوي، والعالِـم الداعية الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، والشيخ محمد الزمزمي الغماري آل ابن الصديق، وأضرابهم كثير ممن لا يمكن حصرهم في مثل هذا السياق، رحمة اللّـه عليهم جميعًا، على اختلاف مشاربهم، وتنوع مداركهم، وتعدد معاركهم، فقد كان في ذلك كله إغناء للبلاد والعباد.

والحقيقة الـمُرَّةُ أن الْخَلَفَ يكاد ينطبق عليه تمثل أم المؤمنين عائشة بقول لبيد رضي اللّـه عنهما:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ
وَبَقِيتُ فِي خَلَفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ[(١)]

(١) رواه البخاري في التاريخ الصغير، وابن أبي شيبة في مصنفه، والبيهقي في الزهد الكبير.

الثالث: انقطاع تدريس العلم الشرعي على وجهه الحقيقي؛ بما أدى إلى انقطاع تخرج العلماء بالمفهوم الأصيل للكلمة، فقد عانت الجامعات الإسلامية والمعاهد الشرعية عبر أغلب أقطار العالم الإسلامي - إلا قليلًا - من أزمة ما سُمِّيَ بقضية (تحديث) أو (إصلاح) برامج التعليم، وذلك عبر فترات ومراحل متتاليات، تدرجت - مع الأسف - من الأعلى إلى الأدنى، بما أخرجها عن وظيفتها الحقيقية، وعَقَّمَ رحمها تعقيمًا، فوجب تنبيه طلبة العلم إلى ما ينبغي انتهاجه للتحقق بمفهوم « العالِـمِيَّةِ »، ولو على طريق العِصَامِيَّةِ، وإحياء عزيمة الرحلة في طلب العلم؛ لتتبع ما بقي من عناصر هذا المعنى العظيم في البلاد، وصياغته في حيوية علمية جديدة، بجيل رباني جديد.

الرابع: تَرَامِي عَدَدٍ من أهل الأهواء والنوازع السياسية على وظيفة العالِـمِيَّةِ، والتلبس بمفهومها بغير حق؛ إذْ صارت حقيقتُها غريبةً بين الناس؛ حتى صار من الصعوبة لدى العامة تمييزُ العالِـم من غير العالِـم، وتداخلت في الأذهان مفاهيمُ كثيرة؛ كمفهوم الواعظ، والداعية، والأستاذ، والمثقف، وهلمَّ جرًّا، والحقيقةُ أنَّ كُلَّ وَصْفٍ من أولئك ليس بالضرورة يَسْلُكُهُ في مفهوم: (العالِـم)؛ فأدى هذا الاختلاط إلى كثير من المفاسد بما حدث من الترامي

على وظيفةٍ من أخطر الوظائف في الأمة، ألَا وهي وظيفة الإفتاء؛ لِمَا يتنج عنها - إنْ لم يُتَقَّ اللّـه فيها - من غلو في الدين؛ كآفةِ التكفير بغير حق، وسفك الدماء، وانتهاك الأعراض، واستباحة أموال الناس، واغتصاب أمنهم وأمانهم، أو آفةِ الغلوِّ المضاد؛ كالتسيب الـمُمَيِّع للدين، والتجرؤ على استباحة المحرَّمات القطعية؛ استنادًا إلى ما يشبه الدليل وليس بدليل، والقولِ على اللّـه بغير علم، والافتئات على النصوص الشرعية بما لم تنطق به، وبما لم تُسَقْ إليه أصالةً ولا تَبَعًا..!

زاد الطينَ بلةً أنَّ طائفةً ممن انتسبوا إلى العلم الشرعي - تعلمًا وتعليمًا - لم يأخذوا منه إلا أشباحَ معارف وأشكالَ أحكامٍ، دخلوا بها في جَدَلٍ عقيم مع الناس، غير مراعين حالَ الزمان وأهله؛ فنفَّرُوا أكثر مما يسروا، وبددوا أكثر مما جددوا..! وقد عُلم أنما العلمُ الحقُّ تربيةٌ وأخلاقٌ، وأن « العلم بأمر اللّـه » لا يكتمل حتى يكون « علمًا باللّـه »، كما سيأتي بيانُه - بحول اللّـه - وكم من شخص اشتغل بالعلم، فانخرط به قبل أن يتمكن من حِكْمَتِهِ في تبديع الناس وتفسيقهم، أو ربما تكفيرهم؛ بما بَدَا لَهُ من هوة وفروق بين حقائق النصوص وحياتهم. وقد عُلِمَ بَدَاهَةً أنَّ العِلَاجَ ليس في أن تقول للمريض: « يا مَرِيضُ..! » فسقط

فيما حَذَّرَ الناسَ منه، من ابتداع منهجي مُدَمِّرٍ؛ وذلك بما أتلف من موازين المنهج الشرعي في الاشتغال بالعلم، تربيةً وتزكيةً، ووقعت عليه عِلَّةُ الغضبة النبوية المنهجية، عندما انتهر رسولُ اللّـه صاحبَه بما أطال على الناس في صلاته، فقال له ﷺ: « **أَفَتَّانٌ أَنْتَ..؟!** »[١]، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، وفي ظروف غياب المفهوم الحقيقي « لِلْعِلْمِ » و« الْعُلَمَاءِ »، في زمان تداخل المصطلحات، واضطراب المفاهيم؛ تَصَدَّى كثير من عشاق « النجومية » ومحبي الزعامات؛ لمجال « العمل الإسلامي التنظيمي »، مستغلين حالة الفراغ العلمي التي تعاني منها الأمة في مجمل بقاعها، وتخلي من بقي من العلماء عن دورهم التاريخي في حمل رسالة التجديد؛ بما رضوا - مع الأسف - من متاع الحياة الدنيا، إلا من رحم اللّـه منهم، وقليل ما هم![٢]

---

(١) ونص الحديث: قوله ﷺ: « يا معاذ! أفتان أنت؟ فلولا صليت بـ «سبح اسم ربك الأعلى »، « والشمس وضحاها »، « والليل إذا يغشى »؛ فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة! » متفق عليه.

(٢) لا يمكن أن نسقط من الحساب مسؤولية العلماء فيما وقع من مفاسد في مجال العمل الإسلامي؛ فالانكماش الذي حصل لهم لم يكن كله بسبب التهميش اللاحق بهم. كلا، فهذا مجافٍ للحقيقة، بل أتيحت لهم فرص رسمية وغير رسمية للعمل الديني والدعوي توجيهًا وتربيةً وتأطيرًا، بصورة واسعة وآفاق كبيرة، ولكن بدون جدوى، أو بمردود ضعيف جدًّا؛ لم يمنع أن يتصدر الميدان من ليس أهلًا له؛ وذلك لأن النيات - مع الأسف - فسدت؛ ولأن الاستعداد للنصح الصادق للّـه ولرسوله ولإمام المسلمين وعامتهم؛ لم يكن عندهم من القصد =

فتَصَدَّرَ الأدْعِيَاءُ واجهةَ العمل الإسلامي، محققين نبوءة الرسول ﷺ بما عُرِفَ في السنة بحديث (قَبْضِ العِلْمِ)، الواقع في فتنة آخر الزمان: « **إن اللّـه تعالى لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزاعًا يَنْتزِعُهُ من العبادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حتى إذا لَمْ يُبْقِ عالِمًا؛ اتَّخَذَ الناسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا..!** »(١).

وقد تَرْجَمَ الإمامُ البخاري لهذا الباب ترجمةً فيها من العلم والحكمة الشيء الكثير، مما لو تَدَبَّرَهُ المرء لخرج منه بفقه عظيم؛ يُبَصِّرُهُ بطبيعة الأزمة في زماننا هذا حقًّا! قال رحمه اللّـه: (باب كيف يُقْبَضُ العلم، وكَتَبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انْظُرْ مَا كانَ من حديث رسول اللّـه ﷺ فَاكْتُبْهُ؛ فإني خِفْتُ دُرُوسَ العِلْمِ، وذَهَابَ العلماء!(٢) ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ ولْتُفْشُوا الْعِلْمَ ولْتَجْلِسُوا حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ لا يَعْلَمُ؛ فإنَّ العِلْمَ لا يَهْلِكُ حتى

=بمكان؛ بل كان القصد - في كثير من الأحيان - إلى الأعمال التي يترتب عليها أجر مادي فانٍ، فإن كان فنعم وإلا فلا، وهذا هو الذي حرمهم القبول، ومحق ربانيتهم، وصاروا مجرد «موظفين» في الشأن الديني، إلا قليلًا قليلًا، والعمل الإصلاحي والتربوي لا يستقيم حاله، ولا ينجح صاحبه إلا بالصدق العالي والتجرد الكامل، وهذا هو أساس الإشكال، واللّـه وحده المستعان.

(١) متفق عليه.

(٢) دروس العلم: يعني انقراضه وهلاكه، من قولك: دَرَسَ الشَّيْءُ يَدْرُسُ فهو دَارِسٌ: إذا بَلِيَ وهَلَكَ.

يكون سِرًّا!)، وهذا واللّـه من أعظم الحِكَمِ وأبلغها! ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ولو وضعتَ على نَاظِرَيْكَ بصيرةَ هذا الحديث النبوي الشريف لوجدت هذا شأن كثير من الزعامات الباطلة في المجال الديني، ممن تصدوا للشأن « الإصلاحي » بغير علم؛ إذ الحالُ أن لا علاقة لهم بالعلوم الشرعية ولا هم من أهل صناعتها، علميًّا وتربويًّا، فبادروا في ظروف الاضطراب المفهومي المعاصر والفراغ العلمي الرهيب؛ لاعتلاء منابرها بغير حق؛ فضلوا وأضلوا فعلًا؛ حيث اختلط على الناس - بسببهم كما أشرنا - مفهومُ « الواعظ »، أو « الكاتب » في الشؤون الدينية؛ بمفهوم « العالِـم »، الذي هو مقصود النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، في سياق الوِرَاثَةِ النبوية، والذي هو المخاطَبُ الأساس بحمل رسالة التجديد في الأمة. فكان أن أدى هذا الاختلاط إلى تدبير الشأن الدعوي من قِبَلِ هؤلاء بإشاعة الخرافات والضلالات في العقائد والعبادات؛ مما أحدث فِتَنًا وانحرافاتٍ شتى في مجال الدين والتدين! واللّـه المستعان.

ألا وإنَّ كُلَّ عَمَلٍ « إسلاميٍّ » لا يَتَصَدَّرُهُ الْعِلْمُ الشرعي، ولا يُؤَطِّرُهُ عُلَمَاءُ الشَّرِيعَةِ فهو بَاطِلٌ بَاطِلٌ، ولن يقود إلا إلى

المهالك والضلال!(١). والنصوص القرآنية والحديثية في هذا المعنى أكثر من أنْ تُحصى!(٢) فهذه القاعدة من القطعيات الشرعية والكليات الدعوية، وما يضل عنها إلا أعمى! وما أفلح فاجِرُ بني إسرائيل الذي قَتَلَ تِسْعًا وتسعينَ نفسًا حينما قَصَدَ عَابِدَهُمْ؛ فأفتاه بالجهل؛ فأتمَّ به المائة، ولكنه أفلح وفاز لَمَّا قَصَدَ عَالِمَهُمْ؛ فكان بتوجيهه الحكيم من التائبين! فتلقته ملائكة الرحمة والغفران(٣)، وإنما العَالِـم: هو الفَقِيهُ

---

(١) حاشا فضلاء الوعاظ ممن أحجموا عن مجال الإفتاء، والتصدي للتحليل والتحريم، والحكم على المؤسسات والأشخاص، مما هو اختصاص فقهي دقيق، وصناعة علمية بحتة، واقتصروا على الاشتغال بالوعظ في مجال المعلوم من الدين بالضرورة؛ فهذا من أعظم الخير وأحسن القول - إن شاء اللّـه - مما يجري عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]، وقد عَرَفَ التراثُ الإسلامي منذ القديم مثل هذه الظاهرة باسم (القصاصين) و(الوعاظ) و(الإخباريين)، ونحو ذلك من الاصطلاحات التي لم تكن تعني انتماء هذه الطائفة إلى أهل العلم، وإنما تصنفهم ضمن أهل الفضل والصلاح؛ من أمثال الواعظ المشهور منصور بن عمار البغدادي، والحارث بن أسد المحاسبي، وإبراهيم الخواص، وغيرهم كثير؛ ولذلك فقد كانوا يُضَعَّفُونَ في الحديث؛ لعدم الاختصاص؛ ولكن أهل العلم أجمعوا على فضلهم، وتراجمهم تملأ كتب الطبقات ذِكْرًا حسنًا؛ من مثل كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم، وسير أعلام النبلاء للذهبي، فلا ينبغي معاملة ظاهرة الوعاظ المعاصرين - من غير العلماء - بغلو مضاد، ما دامت منضبطة إلى أصولها المنهجية المقبولة، فلا يُجحد فضلُها بإطلاق! فإنما ذلك من باب جحد الحق! ويُخشى على الواقع فيه! واللّـه الموفق للخير والهادي إليه.

(٢) سيأتي إيراد بعضها بهذه الورقات - بحول اللّـه - على حسب سياقها.

(٣) القصة مخرجة في الصحيحين.

الرَّبَّانِيُّ الْحَكِيمُ، الذي يُرَبِّي بِصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ، كما سيأتي بيانُه مفصلًا - بحول اللّـه -.

ولكنْ لَـمَّا عَزَّ وجود مثل هذا في زماننا؛ التف بعض الشباب حول من أحسن دغدغة عواطفهم النفسية الجريحة، بما يعانون من التهميش الاجتماعي، والظلم السياسي؛ فاختلطت في أنفسهم مشاعر التدين بمشاعر الرغبة في الانتقام لأوضاعهم الاجتماعية المتردية؛ مما أنتج أجسامًا تنظيمية قد تتحول في بعض الأحيان إلى خلايا سرطانية، تستوعب الشباب بصورة تجميعية متضخمة؛ لتقتل مواهبهم الإبداعية، وتحجم طاقاتهم الإنتاجية، وتحصرها في اجتهادات إملائية تلقينية، لا تدع مجالًا للتفكير العلمي الحر! وهي - قبل ذلك وبعده - تشط بعيدًا عن مراتب الأولويات الشرعية للأمة، الراجعة إلى موازين الشريعة لا إلى العواطف والأهواء!(١) مما أدى إلى

---

(١) وذلك بصياغة نظريات (دعوية)، تُعْرَضُ عَرْضًا خَطابيًا تحميسيًا، وكأنها تستجيب لقصد تحقيق المطالب العدلية للأمة، والمنازل الإحسانية في التربية، ولكنها تناقض في مفاهيمها، ومنهج بنائها؛ أصولَ الشريعة وقواعدَها القطعية، في العقائد والعبادات! حتى رأينا منهم من يرسم مستقبل البلاد والعباد - زعموا - بناءً على مناماتٍ شيطانية، ورؤًى بُهتانية، ما أنزل اللّـه بها من سلطان؛ بل رأينا منهم من يزعم أن له (مشاهدات) باليقظة؛ لصور الملائكة والأنبياء والموتى، ولهم في ذلك مُحَاوَرَاتٌ ومُخَرِّقَاتٌ ومُغْرِبَاتٌ! فاغتروا بما لَبَّسَ عليهم الشيطان، وأمعنوا في الكذب والضلالة والبهتان، واللّـه المستعان.

حصر كثير من مظاهر الصحوة الإسلامية المعاصرة في مأساة ما سميناه بآفة (التنظيم الميكانيكي)، وقد بَيَّـنَّا في دراسة سابقة أن (من أخطر أخطاء العمل الإسلامي المعاصر الوقوعَ في شَرَكِ تحزيب الإسلام!)[١] مما أعطى فرصة للدوافع السياسية الجزئية في التحكم في القضايا الكلية للدعوة الإسلامية، وتهميش دور العلم والعلماء؛ وبهذا اضطربت الموازين، واختلت المقاييس؛ فكان التضخمُ السياسي في العمل الديني، وكان الانحرافُ في التصور والممارسة![٢] وصار التشنج في الخطاب هو السمةَ

---

(١) البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي.
إلا أنه وجب التنويه بدور الحركات الإسلامية المعاصرة خاصة في مراحلها التنظيمية الفطرية الأولى؛ فقد كان لها الفضل في استنهاض الأمة زمنًا، وكان لها الحضور القوي في التربية والتأطير وتصحيح المفاهيم لعدة أجيال، كما أنها قادت بنجاح معركة رد الشبهات الإلحادية، الصادرة عن الاتجاهات الماركسية المتطرفة خلال الستينات والسبعينات من القرن الميلادي الماضي؛ حيث انبرى روادُها ومفكروها للرد على كل محاولات زعزعة إيمان الشباب؛ فأحرزت في ذلك نجاحًا باهرًا؛ ألغى تاريخًا سيئًا كان من المحتمل أن تعيشه الأمة الإسلامية اليوم، ولله الأمر من قبل ومن بعد. وإنما حدث الانحراف في بنيتها من بعد أن صارت هيئاتها التنظيمية غاية لذاتها، وفسدت تصورات كثير من أبنائها للعمل الإسلامي؛ بسبب التخلي عن الأولويات الدعوية، والبرامج التربوية والعلمية، والإغراق في العمل السياسي الجزئي مشاركةً أو مواجهةً، وضمور حجم التأطير الشرعي والتربوي لأفرادها – على عكس ما كان الشأن في بداية أمرها – إلى درجة تخريج طاقات قيادية جَهَلَةٍ بالقواعد الأساسية للدين! مما جعلها تقع في تصرفات شاذة عن حقائق الشرع فهمًا وتزيلًا.
(٢) انظر – إن شئت – ذلك مفصلًا بأدلته في كتابنا: « البيان الدعوي وظاهرة =

الغالبةَ على قِطَاعٍ عَرِيضٍ من هذه التنظيمات! بعيدًا عن قواعد العلم باللّـه وبأمره! إلا قليلًا قليلًا.

والخبير بأحوال البلاد والعباد، وبميزان التدافع العالمي اليوم، يدرك بوضوح أن مثل هذه الاتجاهات التي تتحرك بمقتضى ردود الأفعال المتشنجة؛ إنما هي لعبة – من حيث تدري أو لا تدري – بيد المخابرات الأجنبية، تتحرك في وقت معلوم، وبشكل معلوم؛ كالدمى في الاتجاه الذي يخدم مصلحة (الآخر).

وعَمَلُ (الآخَرِ) ليس بالأسلوب البليد، الذي يكون فيه مُمليًا بصورة مباشرة على هذه الحركة أو تلك، كلَّا طبعًا، وإنما هو يقوم بما نسميه بـ (اللعب العالي)؛ حيث يصنع الظروف والاستفزازات، التي من شأنها أن تحرك كلَّ ذي هوى، ثم يُلقي بوسائطه المندسة في هذه الأجسام المريضة؛ ما يشاء من زخرف القول غرورًا. فَيُخْرِجُ المظاهرات الضخمة، والاستعراضات العريضة، ويصنع الصدامات مع السلطات، هنا وهناك؛ لتأديب هذا النظام أو ذاك، أو الضغط على هذه السلطة أو تلك، أو لتمرير قرار سياسي يحد من نشاط العمل الديني وحريته؛ ما كان له أن يُمَرَّرَ لولا رد الفعل البليد الذي صدر عن هؤلاء.

= التضخم السياسي ».

والجماهير الغافلة المستغفلة - في غياب القيادات العلمية الرشيدة - تهتف صادقةً بجهلها، مستجيبةً للزعماء الجَهَلَةِ بالدين، سائرةً نحو خراب الدين باسم « الدين »، و« الدعوة إلى الدين »، و« الجهاد في سبيل اللّـه » و« نُصْرَةِ المستضعَفِين »، محقِّقةً بشعاراتها هذه وأضرابِها مَناطَ حِكْمَةِ عَلِيِّ بنِ أبي طالب ﷺ عندما عَلَّقَ على شعارات خصومه يومئذ؛ إذْ رفعوها بما يُظهر قصد الاحتكام إلى كتاب اللّـه؛ فقال قولته المشهورة: (حَقٌّ أُرِيدَ بِهِ بَاطِلٌ !).

وإنَّ ذلك في زماننا هذا لهو من أعظم المحن والفتن! وإنما يكشف مثل هذا الزيف العظيم اليوم - مما تداخل فيه الكيدُ الخارجي بالكيد الداخلي - العلماءُ الفقهاءُ، والربانيون الحكماء! ولو حاسبنا أنفسنا صادقين بما دَاخَلَهَا من ضلالات وأهواء في مجال « العمل الديني والدعوي »، وكشفنا ظلماتها - ترغيبًا وترهيبًا - بنور قول اللّـه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]؛ لراجعنا كثيرًا من مقولاتنا وأفكارنا، ولَرَتَّبْنَا لآخرتنا ترتيبًا آخر. ولكنْ قَبَّحَ اللّـه الأهواءَ! ما أشدها على النفوس! ورحم اللّـه أبا الوليد البَاجِّي؛ لِمَا دَبَّجَ من الحكمةِ في وصيته، حيث قال رحمه اللّـه: (فكَمْ مِنْ عَامِلٍ يُبْعِدُهُ عَمَلُه من رَبِّهِ، ويُكْتَبُ ما

يَتَقَرَّبُ به مِنْ أَكْبَرِ ذَنْبِهِ، والْعِلْمُ لا يُفْضِي بصاحبه إلا إلى السعادة، ولا يقصر به عن درجة الرِّفْعَةِ والكَرَامَةِ)[١] ولكن قدر اللّـه ألَّا يقعَ شيءٌ إلا بميزانِه، وفي وَقْتِهِ وإِبَّانِهِ، وللّـه الأمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ.

ومن هنا لم يزل إلحاحنا على طلابنا بأن المخرج من الأزمة إنما هو تجديد إشاعة « العلم »! نعم؛ العلم بمفهومه القرآني الشامل، أي: بما فيه من معنى تنـزيل حقائقه في واقع الأمة، بصورة منهجية وعمق تربوي هادف، شيئًا فشيئًا، وذلك هو العلم بمعنى الحكمة، العلم الذي يُنِيرُ العقولَ، ويحيي اللّـه به القلوبَ، ويجدد الناسُ به العهد مع اللّـه، وقد أخرج الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه اللّـه في كتابه العظيم « جامع بيان العلم وفضله »؛ بسنده إلى مالك بن أنس، رحمه اللّـه ورضي عنه: (أنَّه بَلَغَهُ أنَّ لُقْمَانَ الحكيمَ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ! جَالِسِ العُلَمَاءَ وزَاحِمْهُمْ بِرُكْبَتَيْكَ؛ فإنَّ اللّـه يُحْيِي القلوبَ بِالْحِكْمَةِ، كما يُحْيِي الأرضَ الميتةَ بِوَابِلِ السَّمَاءِ!)[٢].

هذا؛ وقد كانت رغبتنا قديمة في كتابة رسالة حول مفهوم « العالِـم » و« العالِـمِيَّةِ » تساعد على إزالة الغبش عن الأنظار في تحديد دلالة هذا المصطلح؛ لإحسان توظيفه

---

(١) انظر نصوص وصية الباجي كلها بملحق هذه الرسالة.
(٢) جامع بيان العلم وفضله: (١/ ٢١٠).

وتنـزيل حقائقه، ولم يزل بعض طلابنا النجباء، ممن أكرمهم اللّـه - تعالى - بسلامة الصدر، وصحة العزيمة على التفرغ لواجب الاشتغال بالعلم، وحمل أمانته في الأمة إن شاء اللّـه؛ تعبدًا للّـه، وتجديدًا لدينها - يلحون علينا بوضع برنامج تكويني في مجال العلوم الشرعية، يراعي أفضل الطرق وأجداها للتحقق بوصف « العالِـميَّة »؛ عسى أن يكون إفناء أعمارهم فيما ينفعهم وأمتهم، ويضاعف أجورهم يوم القيامة - إن شاء اللّـه - مستبشرين بأحاديث الرسول الكريم في فضل العلم والعلماء؛ كقوله ﷺ: « **فَضْلُ العالِـم عَلَى العَابِدِ كفضلي على أدناكم، إنَّ اللّـه ﷻ ومَلائِكَتَهُ، وأهلَ السمواتِ والأرض، حتى النملة في جُحْرِهَا، وحتى الحوت، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْـخَيْرَ!** »(١).

بَيْدَ أني بقيت إزاء هذا الأمر بين إقدام وإحجام زمنًا؛ أفكر في الأمر ثم أرجئه، ولم أزل كذلك في تردد من أمري؛ لخطورة مثل هذا الأمر من الناحية المنهجية، حتى وقعت بيدي ورقات عظيمة النفع لأحد أعلام علماء الأندلس، وأحد أعمدة المذهب المالكي بها، روايةً ودرايةً، واجتهادًا وتجديدًا، ألَا وهو: الإِمَامُ العُمْدَةُ أَبُو الْوَلِيدِ سُلَيْمَانُ بْنُ

---

(١) رواه الترمذي عن أبي أمامة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٤٢١٣).

خَلَفٍ البَاجِّي رحمه اللّـه (ت:٤٧٤ هـ) والورقاتُ هي عبارة عن « وَصِيَّةٍ لِوَلَدَيْهِ »(١)، وقد ذكرها ابن فرحون المالكي في « الدِّيبَاجِ المُذَهَّبِ »، ضمن مصنفات أبي الوليد البَاجِّي، عند ترجمته، وسماها: (كِتَابَ النَّصِيحَةِ لِوَلَدَيْهِ)(٢). ونَصُّها يقطع بنسبتها إلى الباجي رحمه اللّـه، وهي وصية علمية منهجية تربوية، جامعة مانعة شاملة، حَرِيٌّ بمن أخذ بها أن يتقلد منصب العالِـميَّةِ حقًّا وصدقًا، ويتصف بمقتضياتها خُلُقًا ومَلَكَةً وكَسْبًا؛ فأعجبتُ بها أيما إعجاب، خاصة وأنها كُتبت بأسلوب أدبي رفيع، ونثر فني راقٍ، يدل على ما كان للأندلسيين - على غير عادة كثير من الفقهاء في بلاد أخرى - من ذوق فني عالٍ في اللغة والأدب؛ بما يشجع على قراءة كتبهم والنهل من مصنفاتهم؛ ولذلك فقد قرأت كلماتها مرارًا، ورَدَّدْتُ عباراتها تكرارًا..! وقد جاءت مدبجة بحكم ونصائح عن نظيرها؛ إِذْ ضَمَّنَهَا المؤلِّفُ - رحمه اللّـه -

---

(١) أهدانا نسخة منها صديقنا وأخونا الأستاذ الداعية الفقيه أبو سلمان محمد العمراوي السجلماسي حفظه اللّـه، وهي عبارة عن مطبوعة قام بإخراجها من مخطوطها - عنايةً - الأستاذ المحقق جلال علي الجهاني، ونشرتها مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت. ط. الأولى: (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م) وقد ذكر الأستاذ المحقق عند تقديمه للرسالة أنه استخرجها من مخطوط ضمن مجموع محفوظ بمكتبة الأسكوريال بمدريد، تحت رقم: (٧٣٢). فجزاه اللّـه عن العلم وأهله خير الجزاء.

(٢) الديباج المذهب: (حرف السين، من اسمه سليمان، « ترجمة أبي الوليد الباجي »).

أنظمةً دقيقة في مراتب التعليم ومناهجه، وتحديد أولوياته، ثم ما ينبغي للعالم الحق، وما لا ينبغي له من أمور الأخلاق وأنواع العلاقات؛ ومن هنا أهمية هذه الوصية التي جاءت - على قلة حجمها - رسالة في غاية النفاسة والنفع، خاصة وأنها صدرت عن عالم عظيم، ذي باع طويل وتجربة عميقة في مجال طلب العلم وتعليمه، والاشتغال به، تربيةً وتزكيةً، ونشرًا وتجديدًا، في ظروف شتى، من العسر واليسر، والخوف والأمن، والسفر والحضر، فكيف لا تكون عظيمة وهي كذلك؟ وكيف لا والحاجة إلى مثلها في زماننا هذا ماسة شديدة؟!

ثم ما كان بعد ذلك إلا أن استعنتُ اللّٰه على دراستها، وتفصيل مجملاتها، وبيان إشاراتها، في مجال التربية والتعليم، على طريق تحقيق مفهوم « العالِـميَّةِ »، وبيان ما يلزم طالب العلم ليكون « عَالِـمًا » حَقًّا، مع محاولة تحقيق مناط قواعدها على زماننا هذا، بما يراعي ظروف العصر وحاجاته الجديدة، في سياق موازين التدافع الحضاري، والتحديات العالَمِية الكبرى؛ عسى أن نسهم بذلك في إزالة بعض الغبش اللاحق بهذا المفهوم الحيوي، في بنية الشريعة الإسلامية، سيرًا في طريق استئناف حياة إسلامية جديدة، واللّٰـه وحده المستعان، وعليه التكلان.

ومن هنا جاءت هذه الرسالة في مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة.

فكان **الفصل الأول** في الإمام أبي الوليد الباجِّي ووصيته؛ ولذلك جاء في مطلبين: الأول: في عرض ترجمة الباجي، والثاني: في بيان العَنَاصِرِ الأَسَاسِيَّةِ لوَصِيَّتِه.

والفصل الثاني: في محاولةِ تحديدِ مَفْهُومِ « العالِـم » و« العالِـميَّةِ ».

والفصل الثالث: في بيان الأصول الأربعة للعلوم الشرعية.

والفصل الرابع: في محاولة وضعِ بَرْنَامَجٍ تكويني لِلْعَالِـمِيَّةِ.

ثم كانت الخاتمةُ كَارَّةً على ما سبق بِعِبْرَةٍ جامعة.

ثم ذَيَّلْتُ الرسالةَ بِمُلْحَقٍ ضَمَّنْتُه نَصَّ وصية أبي الوليد الباجي كاملة؛ حتى تُقرأ بِتَأَنٍّ في غير سياق الدرس والشرح؛ عسى أن تكون عِبرةً للمعتبِرِين، وعِظَةً للمتعظين؛ إذْ في ثناياها وصايا جزئية، وحِكَمٌ تفصيلية، مما لم نتعرض له بالتفصيل إلا في إطار الكليات التي درسنا، لكنها جزئياتٌ ثمينة جدًّا في ذاتها وسياقها، تُشَدُّ إلى مثلها الرحال، وإنما الـمُوَفَّقُ من وفقه اللّٰـه ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وكتبه - بمكناسة الزيتون - عبدُ ربه، راجي عفوه

وغفرانه: **فريدُ بنُ الحسن الأنصاري الخزرجي**،

عفا اللّـه عنه، وغفر له ولوالديه ولسائر

المسلمين، وكان تمام تصنيفه وتنقيحه

بحمد اللّـه يوم الخميس، تاسع

عشر ذي الحجة، من عام

١٤٢٦هـ، الموافق لتاسع

عشر يناير من عام

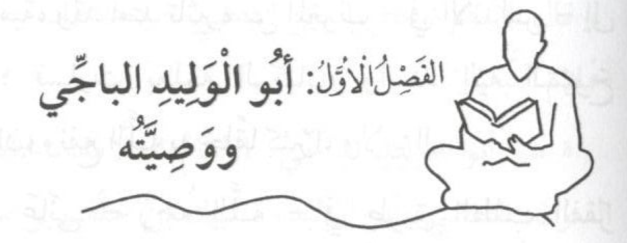
٢٠٠٦م

والحمد للّـه الذي بنعمته تتم الصالحات

***

الفَصْلُ الأَوَّلُ

أَبُو الْوَلِيدِ البَاجِّي ووَصِيَّتُه



الفَصْلُ الأوَّلُ: أبُو الْوَلِيدِ الباجِّي ووَصِيَّتُه

المطلب الأول: في شَخْصِيَّةِ أبي الوَلِيدِ البَاجِّي:

قيمةُ الكلمةِ إنما تتحدد بقيمةِ قائلِها، فإذا أردنا أن نعرف حقًّا قيمة « وصية » أبي الوليد - رحمه اللّـه -، وما أَوْدَعَ فيها من حِكَمٍ علميةٍ وأسرارٍ منهجية؛ فلا بد من التعرف عليه وعلى شخصيته، عبر كل مراحلها، وفي كل أبعادها: الاجتماعية، والنفسية، والدينية، والعلمية، بِمَ اكتسب كل ذلك وكيف؟ فمعرفة سِـيَرِ الرجال لهو من أعظم الدروس والعبر في حياة البشر؛ ذلك أن السِّـيَرَ تختصر لطالب العلم دروسًا شتى، ومناهج شتى، في طريق اكتساب العلم وطلبه، خاصة إذا كانت الشخصية المدروسة من العبقريات النادرة، ومن الأبدال المنتصبة! فتلك حياة تُشَدُّ إلى معرفتها الرحال! وتُقطع في سبيلها المخاطر والأهوال.

ولا شك أن أبا الوليد هو من هؤلاء القلائل في تاريخ الأمة، ممن كانوا مناراتٍ في طريق تجديد الدين، ونهضة العلم والعلماء، وتمتين سلسلة التربية والتعليم في حضارتنا

الإسلامية، وقد امتد تأثيره من المغرب - في الأندلس - إلى المشرق؛ فسارت بعلمه الركبان، وأسند إليه الشيوخ والولدان، ونفع اللّـه به خلقًا كثيرًا، ولا يزال.

وقد عانَى - رحمه اللّـه - في طريق الطلبِ الفقرَ وشظفَ العيش، وقاسى لواعجَ الحاجة والحرمان في رحلته إلى المشرق ببغداد، وكذلك بعد عودته إلى موطنه الأصلي بالأندلس؛ فاشتغل بيده حينًا، واستأجر نفسه حينًا آخر، بل اضطر للتكسب بشعره أحيانًا أخرى، إلى أن اكتشف الناس تفوقه العلمي، ونبوغه الفقهي؛ فكان من أمره ما كان، وهرع إليه العلماء والأمراء، ثم صار « ذا الوزارتين » في دولة الأندلس، وقاضيَ قضاتها، ومرجع عامتها وخاصتها، وقد امتُحِنَ أثناء ذلك بمناوأة حُسَّاده؛ فاتهموه بما قصرت عنه أفهامهم من فكره واستدلاله! وما غَيَّرَ ذلك كلُّه من صلاحه وورعه، ولا بدَّل من همته وعزيمته، بل أفرغ كل طاقته في نشر العلم والتصنيف فيه؛ حتى جاء بمصنفات في الفقه، والحديث، والأصول، والجدل، والمناظرة، ما لا يجود الزمان بمثله، ولا يتمخض التاريخ بِكُفْئِه.

هذا؛ وقد جاءت ترجمة أبي الوليد - رحمه اللّـه - في كتب الرجال والطبقات واسعة مستفيضة، كافية شافية، وإنما نختصر منها ما يلي:

قال الإمام شمس الدين الذهبي - رحمه اللّـه - في سِيَرِ أعْلامِ النُّبَلاء:

« هو أبو الوَلِيدِ البَاجِّي، الإمامُ العلَّامة، الحافظ، ذو الفنون، القاضي، أبو الوليد، سليمانُ بنُ خَلَفِ بن سعدِ بن أيوبَ بنِ وارثِ التُّجِيبِيُّ، الأندلسي، القُرطبي، البَاجِّيُّ، الذهبي، صاحبُ التصانيف، أصلُهُ من مدينة بَطلْيوسَ، فتحول جدُّه إلى بَاجَّةَ - بُلَيْدَةٌ بقُرب إشبيلية - فنُسب إليها.

وُلد أبو الوليد في سنة ثلاثٍ وأربعمائة.

وأخذ عن: يونُسَ بن مُغيث، ومكِّيِّ بنِ أبي طالب، ومحمد بن إسماعيل، وأبي بكرٍ محمدِ بنِ الحسن بن عبدِ الوارث. وارتحل سنةَ ست وعشرين، فَحجَّ، ولو مَدَّها إلى العراق وأصبَهان؛ لأدركَ إسنادًا عاليًا، ولكنه جَاوَرَ ثلاثةَ أعوام، مُلازِمًا للحافظ أبي ذر، فكان يُسافِرُ معه إلى السَّراة، ويخدِمُه، فأكثر عنه، وأخذ علمَ الحديثِ والفقه والكلام، ثم ارتحل إلى دمشق، فسمع من: أبي القاسم عبدِ الرحمن بنِ الطُّبَيز، والحسنِ بن السمسار، والحسنِ بنِ محمد بن جُميع، ومحمد بن عوف المُـزَني.

وارتحل إلى بغداد، فسمع عمرَ بن إبراهيم الزُّهري، وأبا طالبٍ محمد بن محمد بن غيلان، وأبا القاسم الأزهري، وعبدَ العزيز بن علي الأزجي، ومحمدَ بن علي الصوري

الحافظ، وصَحِبَه مُدةً، ومحمدَ بن عبد الواحدِ بن رزمة، والحسنَ بن محمد الخَلَّال، وخلقًا سواهم.

وتفقَّهَ بالقاضي أبي الطَّيِّبِ الطبري، والقاضي أبي عبد اللّـه الصَّيمري، وأبي الفضلِ بن عمروس المالكي، وذهب إلى الموصل، فأقام بها سنةً على القاضي أبي جعفر السِّمناني المتكلم، صاحب ابنِ الباقلاني، فبرز في الحديث والفقه والكلام والأصول والأدب.

فرجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنةً بعلمٍ غزير، حصَّله مع الفقر والتَّقَنُّعِ باليسير.

حدَّث عنه: أبو عُمَرَ بنُ عبد البَر، وأبو محمد بنُ حزم، وأبو بكرٍ الخطيبُ، وعليُّ بنُ عبد اللّـه الصقلِّي، وأبو عبدِ اللّـه الحُميدي، وأحمدُ بنُ علي بن غَزْلون، وأبو علي بنُ سُكَّرة الصَّدَفي، وأبو بكرٍ الفِهريُّ الطُّرْطوشي، وابنُه الزاهد أبو القاسم بنُ سُليمان، وأبو علي بنُ سهل السَّبْتي، وأبو بحرٍ سفيانُ بنُ العاص، ومحمدُ بنُ أبي الخير القاضي، وخلقٌ سواهم.

وتفقَّه به أئمةٌ، واشتهر اسمُه، وصنَّف التصانيف النفيسة.

قال القاضي عياض: آجرَ أبو الوليد نفسَه ببغداد لحراسة دَرْب، وكان لما رجع إلى الأندلس يَضْرِبُ ورق الذهب

للغَزْل، ويعقدُ الوثائق، قال لي أصحابُه: كان يخرجُ إلينا للإقراءِ وفي يده أثرُ المِطرقة! إلى أن فَشَا عِلْمُه، وهَيَّتتِ الدنيا به، وعَظُم جاهُه، وأُجْزِلَتْ صِلاتُهُ، حتى تُوفي عن مالٍ وافرٍ، وكان يستعملُه الأعيانُ في تَرَسُّلهم، ويقبلُ جوائزَهم، وَلِيَ القضاءَ بمواضعَ من الأندلس، وصنَّف كتاب « المنتقى في الفقه »، وكتاب « المعاني في شرح الموطأ »، فجاء في عشرين مجلدًا، عديمَ النظير.

قال: وقد صنَّف كتابًا كبيرًا جامعًا، بلغَ فيه الغايةَ، سمّاه « الاستيفاء »، وله كتابُ « الإيماء في الفقه » خمس مجلدات، وكتابُ « السراج في الخلاف » لم يتم، و« مختصر المختصر في مسائل المدونة »، وله كتابٌ في اختلاف الموطآت، وكتابٌ في الجرح والتعديل، وكتابُ « التسديد إلى معرفة التوحيد »، وكتاب « الإشارة في أصول الفقه »، وكتابُ « إحكام الفصول في أحكام الأصول »، وكتابُ « الحدود »، وكتابُ « شرح المنهاج »، وكتاب « سُنن الصالحين وسَنَن العابدين »، وكتابُ « سُبل المهتدين »، وكتابُ « فِرق الفقهاء »، وكتاب « التفسير » لم يتمه، وكتاب « سنَن المنهاج وترتيب الحجاج ».

قال الأمير أبو نصر: أما الباجي ذو الوَزارتين ففقيهٌ متكلم، أديبٌ شاعر، سمع بالعراق، ودرس الكلام،

وصنَّف.. إلى أن قال: وكان جليلًا، رفيعَ القَدْرِ والخَطَر، قَبْرُه بأَلْمَرِيَّةِ.

وقال القاضي أبو علي الصَّدَفي: ما رأيتُ مثل أبي الوليد الباجي، وما رأيتُ أحدًا على سَمْتِهِ وهيئته وتوقيرِ مجلسه. ولما كنتُ ببغداد قَدِم وَلَدُهُ أبو القاسم أحمد، فَسِرْتُ معه إلى شيخنا قاضي القضاة الشامي، فقلتُ له: أدامَ اللّه عِزَّكَ، هذا ابنُ شيخ الأندلس، فقال: لعله ابنُ الباجي؟ قلتُ: نعم، فأقبل عليه.

قال القاضي عياض: كَثُرَتِ القالةُ في أبي الوليد لِـمُداخلتِه للرؤساء، وَوَلِيَ قضاءَ أماكن تصغُر عن قدره كأُوريُولة، فكان يبعثُ إليها خُلفاءَه، وربما أتاها المرَّةَ ونحوَها، وكان في أول أمره مُقِلًّا حتى احتاج في سفره إلى القَصْدِ بشعره، وإيجارِ نفسِه مدَّةَ مُقامه ببغداد فيما سمعتُه مُستفيضًا؛ لحراسةِ دربٍ، وقد جمع ولدُه شعرَه، وكان ابتدأ بكتاب «الاستيفاء» في الفقه، لم يضع منه سوى كتاب الطهارة في مجلدات (....).

ولما قدم من الرحلة إلى الأندلس وجَد لكلام ابن حزمٍ طَلاوةً، إلا أنه كان خارجًا عن المذهب، ولم يكن بالأندلس من يَشتغِل بعلمه، فقَصُرَتْ ألسنةُ الفقهاء عن مُجادلتِه وكلامِه، واتَّبعه على رأيه جماعةٌ من أهل الجهل، وحلَّ

بجزيرة مَيُورْقَةَ، فرَأَسَ فيها، واتَّبعه أهلُها، فلما قدم أبو الوليد، كلَّموه في ذلك، فدخل إلى ابنِ حزم، وناظره، وشهرَ باطلَه! وله معه مجالسُ كثيرة، قال: ولما تكلَّم أبو الوليد في حديث الكتابةِ يوم الحُديبية الذي في «صحيح» البخاري، قال بظاهرِ لفظه؛ فأنكر عليه الفقيهُ أبو بكر بنُ الصائغ، وكفَّرهُ بإجازته الكَتْبَ على رسول اللّه النبيِّ الأميِّ، وأنه تكذيبٌ للقرآن، فتكلَّم في ذلك من لم يفهم الكلامَ! حتى أطلقوا عليه الفتنةَ، وقبَّحوا عند العامَّة ما أتى به، وتكلَّم به خُطباؤُهم في الجُمَع.

ومِن نَظْمِ أبي الوليد:

إذا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمًا يَقينًا ... بأنَّ جَميعَ حَياتِي كَساعَه

فَلِمْ لا أكُونُ ضَنينًا بِها ... وَأَجْعَلُهَا في صَلَاحٍ وَطَاعَه

قال أبو علي بن سُكَّرة: مات أبو الوليد بألْمَرِيَّةَ في: تاسع عشر رجب، سنة أربعٍ وسبعينَ وأربعمائة، فعُمرُهُ إحدى وسبعون سنة سوى أشهرٍ، فإنَّ مولدَه في ذي الحجة من سنة ثلاثٍ وأربعمائة »(١).

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١٣/٢٢٣).

وقال ابن فرحون المالكي:

« قال ابن بشكوال: وأخبرني بعض أصحابنا قال: سمعت القاضي أبا علي بن سُكَّرة يقول في القاضي أبي الوليد: « ما رأيتُ مثلَه ولا رأيتُ على سَمته وهيبته وتوقير مجلسه، وقال: هو أحد أئمة المسلمين! »، قال ابن بسام: « بلغني عن الفقيه أبي محمد بن حزم أنه كان يقول: « لم يكن لأصحاب المذهب المالكي - بعد القاضي عبد الوهاب - مثلُ أبي الوليد الباجي » (...).

ولما تكلم أبو الوليد في حديث البخاري المروي في عمرة القضاء، والكتابة إلى قريش، وذكر قول من قال بظاهر اللفظ؛ أنكر عليه أبو بكر بن الصائغ الزاهد، وكفَّره بإجازته الكَتْبَ على النبي ﷺ، وتكلم في ذلك مَنْ لم يفهم الكلام، حتى أطلقوا عليه اللَّعن! فلما رأى ذلك ألف رسالته المسماة بـ « تحقيق المذهب »؛ بيَّنَ فيها المسألة لمن يفهمها، وأنها لا تقدح في المعجزة، كما لا تقدح القراءةُ في ذلك؛ فوافقه أهل التحقيق بأسرار العلم، وكتب بها لشيوخ صقلية؛ فأنكروا على ابن الصائغ، ووافقوا أبا الوليد على ما ذكره.

قلت: (القول لابن فرحون) وذَكَرَ القاضي أبو بكر بن العربي - رحمه اللّـه تعالى - في كتاب « القواصم والعواصم »

له، بعد ذكره ما وقع في الغرب من الفتن، فقال: « عطفنا عِنَانَ القول إلى مصائبَ نزلت بالعلماء في طريق الفتوى لما كثرت البدع، وذهب العلماء وتعاطت المبتدعة منصب الفقهاء، وتعلقت بهم أطماع الجهال؛ فقالوا بفساد الزمان، ونفوذ وعد الصادق في قوله ﷺ: « **اتخذ الناسُ رؤوسًا جُهالًا؛ فسئلوا فأفْتَوا بغير علم، فضَلُّوا وأضَلُّوا** »[1].

وبقيت الحالُ هكذا فماتت العلوم إلا عند آحاد الناس، واستمرت القرون على موت العلم، وظهور الجهل، وذلك بقدرة اللّـه تعالى، وجَعَلَ الْخَلَفُ منهم يتبع السلف؛ حتى آلت الحال إلى أن لا يُنْظَرَ في قول مالكٍ وكبراء أصحابه، ويُقال: « قد قال في هذه المسألة أهلُ قُرْطبة، وَأهلُ طَلَمْنكة؛ وأهل طلبدة، وأهل طُلَيطلة! » وصار الصَّبِيُّ إذا عَقِلَ سلكوا به أمثلَ طريقة لهم، وعلموه كتابَ اللّـه تعالى، ثم نقلوه إلى الأدب، ثم إلى الموطأ ثم إلى المدَّونة، ثم إلى وثائق ابن العطار، ثم يُخْتَمُ له إلى أحكام ابن سهل، ثم يقال: قال فلان الطليطلي، وفلان المجريطي، وابن مغيث، لا أغاث نداه؛ فيرجع القهقرى! ولا يزال إلى وَرَا..! ولولا أن اللّـه تعالى مَنَّ بطائفة تفرقت في ديار العلم، وجاءت بلباب منه؛ كالقاضي أبي الوليد الباجي، وأبي محمد الأصيلي، فرَشُّوا من

(١) متفق عليه.

ماء العلم على هذه القلوب الميتة، وعطَّروا أنفاس الأمة الذفرة؛ لكان الدِّينُ قد ذهب! ولكن تدارك الباري سبحانه بقدرته ضرر هؤلاء بنفع هؤلاء، وتماسكت الحالُ قليلًا، والحمد للّـه تعالى (...).

ولأبي الوليد تآليف مشهورة؛ منها: كتاب « الاستيفاء، في شرح الموطأ » كتابٌ حفيلٌ كثير العلم، لا يُدْرِكُ ما فيه إلا مَنْ بلغ درجة أبي الوليد في العلم، وكتاب « المنتقى في شرح الموطأ » وهو اختصار « الاستيفاء »، ثم اختصر « المنتقى » في كتاب سماه: « الإيماء » قدرُ ربع « المنتقى »، وكتاب « السِّراج في علم الحِجَاج »، وكتاب « مسائل الخلاف » لم يتم، وكتاب « المقتَبس، من علم مالك بن أنس » لم يتم، وكتاب « المهذَّب في اختصار المدونة »، وكتاب « شرح المدونة »، وكتاب « اختلاف الموطأ » و « مسألة اختلاف الزوجين في الصداق »، وكتاب « مختصر المختصر في مسائل المدونة »، وكتاب « إحكام الفصول في أحكام الأصول »، وكتاب « الحدود في أصول الفقه »، وكتاب « الإشارة في أصول الفقه »، وكتاب « تبيين المنهاج »، وكتاب « التشديد إلى معرفة طريق التوحيد »، وكتاب « تفسير القرآن » لم يكمل، وكتاب « فِرَق الفقهاء » - قال ابن هلال: رأيته في الإسكندرية - وكتاب « الناسخ والمنسوخ » لم يتم، وكتاب « السنن في الرقائق والزهد والوعظ »، وكتاب

« التعديل والتجريح لمن خرَّج عنه البخاري في الصحيح »، وكتابٌ في مسح الرأس، وكتاب في غسل الرجلين، وكتاب « النَّصِيحَةِ لِوَلَدَيْه »[١]، ورسالته المسماة: بـ « تحقيق المذهب »، وله غير ذلك.

توفي - رحمه اللّـه تعالى - بألمرية سنة أربع وسبعين وأربعمائة، لسبع عشرة ليلة خلت من رجب، ودفن بالرِّباط، على ضفة البحر، وصلى عليه ابنُه أبو القاسم »[٢].

فأي وصية وأي رسالة! وأي نصيحة تكون هاته التي يكتبها رجلٌ مثلُ هذا ؟ ذلك قصدٌ منهجي عظيم يُرَاعَى في قراءة الكتب والمصنفات[٣]، وهو واحد من المقاصد التي حَمَلَتْنَا على شرح هذه الرسالة ودراستها، واستنباط أسرارها

---

(١) لكن الأستاذ جلال الجهاني أخرجها بعنوان: « (وصية) الإمام الحافظ أبي الوليد الباجي لولديه »، بدل (نصيحة)، وهو أدق؛ لأن ذلك هو الثابت في نص المخطوطة المعتمدة لديه في التحقيق، كما ستراه في الملحق بهذه الرسالة إن شاء اللَّـه، والمخطوطة أقدم من ابن فرحون رحمه اللَّـه، فقد توفي هو بالمدينة حيث نشأ سنة: (٧٩٩هـ)؛ بينما نُسخت هي بمحلها بالأندلس سنة (٧٤٩هـ).

(٢) الديباج المذهب: (حرف السين: من اسمه سليمان).

(٣) وقد تعدَّتْ الوصيةُ وَلَدَيْ الباجي نفعًا وإفادةً، حيث تلقاها طلبة العلم بالأندلس بما يليق بها من حفاوة واهتمام، فتداولتها الأقلام بالنسخ والحفظ قرونًا. يدل على ذلك أن المخطوطة التي اعتمدها المحقق لإخراج نصها للنور نُسخت بالأندلس في القرن الثامن الهجري، وذلك يوم الخميس، السابع لشهر ذي الحجة، مُخْتَتَمَ عام: (٧٤٩هـ) أي بعد وفاة الباجي رحمه اللَّـه بما يقارب ثلاثة قرون! مما أعطاها طابع الرسالة المقصودة بالتأليف؛ ولذلك فإن ابن فرحون عدها من مصنفات الباجي - رحمه اللَّـه - عند ترجمته كما رأيت! وذاع خبرها بالمغرب والمشرق.

ودررها، واللّـه الموفق للخير المعين عليه.

المطلب الثاني: في العَنَاصِرِ الأَسَاسِيَّةِ للوَصِيَّة:

إن حرص أبي الوليد الباجي على توريث « العلم » لِوَلَدَيْهِ[١]؛ جعله يجمع لهما في وصيته كل ما من شأنه أن يمكنهما من منازل العلماء، وأكابر الفقهاء، روايةً ودرايةً، وصلاحًا وورعًا، وسيادةً اجتماعيةً؛ مما يؤهلهم لتقلد وظائف العالِمِيَّةِ الكبرى، من مهام تربوية وإصلاحية، أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، بقواعده وضوابطه؛ فجاءت الوصية بذلك جامعة مانعة، بل إنها ورقة مرجعية في منهج تخريج « العالِمِ الوارث » الذي يكون سببًا في تجديد الدين، وإعادة بعث

(١) اشتهر منهما ونبغ ابنه: أبو القاسم أحمد بن سليمان بن خلف الباجي، وقد (كان من أهل الدين والفضل، غلب عليه علم الأصول والخلاف، تفقه على أبيه، وخلفه في حلقته بعد وفاته، وأخذ عنه جِلةٌ من أصحاب أبيه؛ كأبي علي الصدفي، وحدث عنه الجياني، وأذن له أبوه في إصلاح كتبه في الأصول فتتبعها، وألف كتابه « معيار النظر »، و « كتاب سر النظر »، و « كتاب البرهان على أن أول الواجبات الإيمان »، وتخلَّى عن تركة أبيه وكانت واسعة، ورحل إلى المشرق، ودخل بغداد فأقام بها سنتين أو نحوهما، ثم تحول إلى البصرة، ثم استقر في بعض جزائر اليمن، ثم حج، فمات بجدة بعد منصرفه من الحج في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة رحمة اللّـه عليه). مختصر عن كتاب الديباج المذهب لابن فرحون المالكي، (حرف الألف: من اسمه أحمد).

الأمة، وإحيائها - بإذن اللّـه -.

ومن هنا فقد كانت العناصر الأساسية للوصية مشتملة على ما يلي:

أولًا: مقدمة في التذكير بوراثة بني خَلَفٍ لصلاح الدين؛ تقوى وورعًا، قال - رحمه اللّـه -: (واعلما أننا أهل بيت لم يخل - بفضل اللّـه - ما انتهى إلينا منه من صلاح وتدين وعفاف وتصاون (...) وكان أوفر التدين والتورع والتعبد في جدكم خلف، وكان مع جاهه وحاله واتساع دنياه منقبضًا عنها متقللًا منها، ثم أقبل على العبادة والاعتكاف إلى أن توفي رحمه اللّـه!)[١]؛ ولذلك كان قوله بعد: وأول ما أوصيكما به ما أوصى به ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ثم شرع في تفصيل مقاصد الوصية فقال: (وتنقسم وصيتي لكما قسمين؛ فقسم فيما يلزم من أمر الشريعة، أبيِّن لكما منه ما يجب معرفته، ويكون فيه تنبيه على ما بعده، وقسم فيما يجب أن تكونا عليه في أمر دنياكما، وتجريان عليه بينكما).

(١) انظر كل نصوص الوصية في الملحق.

ثانيًا: أوصى بعد ذلك بالتمسك بأركان الإيمان، وسلامة الاعتقاد، وما يلزم لتغذيته من أعمال، وعلى رأسها: (التمسك بكتاب اللّـه - تعالى جَدُّهُ - والمثابَرة على تحفظه وتلاوته، والمواظبة على التفكر في معانيه وآياته، والامتثال لأوامره، والانتهاء عن نواهيه وزواجره)، ثم محبة الرسول ﷺ، قال: (وأَثْبِتَا في أنفسكما المحبةَ له، والرضا بما جاء به، والاقتداء بسنته، والانقياد له، والطاعة لحكمه، والحرص على معرفة سننه، وسلوك سبيله، فإن محبته تقود إلى الخير، وتنجي من الهلكة والشر!).

ونبَّه على العقائد الباطلة، مما تعتقده الروافضُ في الصحابة الكرام، وذلك بأسلوب إيجابي لطيف؛ فقال: (وأَشْرِبَا قلوبَكما محبةَ أصحابه أجمعين، وتفضيل الأئمة منهم الطاهرين؛ أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم، ونفعنا بمحبتهم، والزِمَا أنفسكما حسن التأويل لما شجر بينهم، واعتقدا الجميل فيما نُقل عنهم!)، ثم نبه أيضًا إلى احترام السلف الصالح من التابعين وأئمة الهدى، وعدم الإزراء بشأنهم، قال: (ثم تفضيل التابعين، ومن بعدهم من الأئمة والعلماء - رحمهم اللّـه - والتعظيم لحقهم، والاقتداء بهم، والأخذ بهديهم، والاقتفاء لآثارهم، والتحفظ لأقوالهم، واعتقاد إصابتهم).

ثالثًا: ثم أوصى بالمحافظة على أداء أركان الإسلام على كمالها - إحسانًا وإتقانًا - من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، ثم الجهاد في سبيل اللّـه. وكان له خصوص حض على الاشتغال بالصلاة والاجتهاد في إحسانها؛ لأنها (عمود الدين، وعماد الشريعة، وآكد فرائض الملة في مراعاة طهارتها، ومراقبة أوقاتها، وإتمام قراءتها، وإكمال ركوعها، وسجودها، واستدامة الخشوع فيها، والإقبال عليها، وغير ذلك من أحكامها، وأدائها في الجماعات والمساجد، فإن ذلك شعار المؤمنين وسنن الصالحين، وسبيل المتقين!).

رابعًا: ثم افتتح الكلام بعد ذلك بحضِّهما على طلب العلم، بأسلوب جذاب رفيع، فقال رحمه اللّـه: (واعلما أنكما إنما تصلان إلى أداء هذه الفرائض، والإتيان بما يلزمكما منها - مع توفيق اللّـه لكما - بالعلم، الذي هو أصل الخير، وبه يتوصل إلى البر، فعليكما بطلبه؛ فإنه غنًى لطالبه، وعزٌّ لحامله، وهو - مع هذا - السببُ الأعظم إلى الآخرة، به تُجْتَنَبُ الشبهاتُ وتَصِحُّ القرباتُ. فكم من عامل يُبعده عَمَلُه من ربه، ويُكتب ما يَتَقَرَّبُ به من أكبر ذنبه! والعلمُ لا يُفْضِي بصاحبه إلا إلى السعادة، ولا يقصر به عن درجة الرفعة والكرامة، قليلُه ينفع، وكثيرُه يُعلي ويَرفع، كَنْزٌ يَزْكُو على كل حال، ويَكثر مع الإنفاق، ولا يغصبه غاصبٌ، ولا

يُخاف عليه سارقٌ ولا محارِبٌ! فاجتهدا في طلبه، واستعذبا التعبَ في حفظه، والسهرَ على درسه، والنَّصَبَ الطويلَ في جمعه، وواظبا على تقييده وروايته، ثم انتقلا إلى فهمه ودرايته!).

وفي هذا النص إشارة منهجية إلى طريقة التعلم والتعليم المفضلة عنده، وهي التقييد والجمع، ثم الفهم والتفقه بعد الجمع. ولقد ثار جدل في العصور الحديثة حول طريقة المتأخرين، الموروثة في جامعات التعليم العتيق، التي لم تزل تعتمد الحفظ والاستظهار للنصوص، دون أن تكلف نفسها عناء الدخول في مدارج التفقه، بقواعده ومناهجه؛ فكان أن جمد التعليم، وساد الجهل والتقليد، لكن هذا أدى إلى نوع من الغلو في رد الفعل؛ فكانت طائفةٌ من الناس - بسبب ذلك - يقللون من شأن الجمع والحفظ والاستظهار لنصوص التراث، والحقيقة أن الأمر ليس على إطلاقه، فالجمع مهم جدًّا؛ لأنه يُكَوِّنُ مخزونًا ثقافيًّا للطالب، ويعينه على سرعة الاستحضار للنصوص والشواهد والأفكار.

هذا من جهة؛ ثم هو يعينه - من جهة أخرى - على التمرس بلغة التراث العربي الإسلامي، بما هي مفتاح المفاتيح لفهم القرآن الكريم والسنة النبوية، إلا أنه لا بد من التنبيه إلى أنه ليس كل شيء صالحًا للحفظ والاستظهار،

فكم من منظومة ميتة لا غناء فيها لطالب العلم؛ ظلت مُعْتَكَفَ الطلبة والحفاظ؛ بسبب شهرتها، قرونًا طويلة؛ مما أدى إلى إهمال تراث أفضل منها، ففوتت على الأجيال خيرًا كثيرًا.

هذا، وإن خير الحفظ والاستظهار إنما هو ما كان حفظًا للقضايا والأفكار، لا ما كان حفظًا حرفيًّا للعبارات، وتنغيمًا للكلمات! فإنما يُحفظ بالحروف والألفاظ كتابُ اللّه وحده، ثم سنة رسوله ﷺ. وكل جهد في غيرهما - استظهارًا بالحرف - إنما هو إضاعةٌ لفرصة من حفظِ كتابٍ جديدٍ بالفكر! أولى أنْ تُخَزَّنَ في الذاكرة قضاياه وأحكامه، وينضاف رصيد علمي جديد لحاملِهِ بفكره، وحافِظِهِ بعقله، وأما الاعتكاف على حروف المتون - رغم أهميته - فإنه يُفَوِّتُ ذلك كله؛ وذلك لِمَا يستغرق الحفظُ الحرفي من وقت طالب العلم، هو أولى به لمصلحة أكبر لو تدبر! والقضية إنما هي مُعادَلَةُ واحدٍ باثنين أو أكثر! عند المقارنة بين المنهجين؛ فالمسألة حسابية لمن يهتم بالأوقات والأعمار، ويرغب في اختصار الطريق إلى جمع المصنفات والأسفار.

هذا؛ علاوةً على أن الحفظ الفكري والاستظهار العقلي هو أَدْعَى لتكوين العقلية الاجتهادية، والشخصية النقدية الاستنباطية، التي تحلق في سماء الإبداع والتجديد، بينما

غالبُ أمر الاستظهار الحرفي أن يُخْلِدَ صاحبُه إلى أرض الجمود والتقليد! وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له، وما التوفيق إلا باللـه.

وأما التفقه والتفهم فهو الغاية المنهجية من التعليم والتعلم، وعدمُ الأخذ بأسبابه إجهاضٌ لمسيرة الطلب في غير طائل؛ بل ربما أدت إلى تخريج متعلمين ليسوا بعلماء! فكانت مصيبة الناس في اتخاذ الرؤساء الجهال أعلامًا للاسترشاد؛ فقادوا الناس بجهلهم المركبِ إلى مواطن الضلال[1]؛ ولذلك ليس أحسن من هذا الترتيب البديع، الذي نص عليه الباجي رحمه اللـه - أعنى « الجمع » بمعنى الحفظ، ثم التفقه والفهم -.

خامسًا: في ترتيب العلوم، قال رحمه الله: (وأفضل العلوم علم الشريعة، وأفضل ذلك - لمن وُفِّقَ - أن يُـجَوِّدَ قراءةَ القرآن، ويحفظ حديث النبي ﷺ، ويعرف صحيحه

(١) حاشا رواة الحديث ممن تفرغوا لنقل السنة النبوية بقصد التبليغ؛ ففيهم قال الرسول ﷺ: « نضر اللـه امرأ سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه غيره، فربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه، ورب حامل فقه ليس بفقيه! » رواه الترمذي والضياء عن زيد بن ثابت، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٦٧٦٣)، وقد رُوي هذا الحديث بصيغ أخرى صحيحة عند الترمذي وابن ماجه والحاكم وأحمد، عن عدد من الصحابة؛ منهم: ابن مسعود، وأنس بن مالك، وجبير بن مطعم، وزيد بن ثابت؛ مما يفيد تواتره المعنوي، وإنما كلامنا عمن تصدوا للإفتاء في زماننا هذا ولما يتفقهوا.

من سقيمه، ثم يقرأ أصول الفقه؛ فيتفقه في الكتاب والسنة، ثم يقرأ كلام الفقهاء وما نقل من المسائل عن العلماء، ويَدْرَبُ في طرق النظر[1]، وتصحيح الأدلة والحجج، فهذه الغاية القصوى والدرجة العليا، ومن قصر عن ذلك فليقرأ - بعد تحفظه القرآن ورواية الحديث - المسائلَ على مذهب مالك - رحمه اللـه - فهي إذا انفردت أنفع من سائر ما يقرأ مفردًا في باب التفقه، وإنما خصصنا مذهب مالك رحمه اللـه؛ لأنه إمام في الحديث وإمام في الرأي، وليس لأحد من العلماء - ممن انبسط مذهبُه، وكثرت في المسائل أجوبتُه - درجةُ الإمامة في المعنيين).

وهذه الفقرة من الوصية تعتبر زبدة الفكر التعليمي عنده، وخلاصة التجربة التي اكتسبها في منهجية التفقه في الدين؛ إذ جعل غاية التعليم منقسمة إلى قسمين، على حسب مؤهلات طالب العلم ومستوى عزيمته:

أ- فهو إما يكون ممن يطمح إلى منصب الإمامة العلمية، فيكون من العلماء المجددين؛ بنيل درجة الاجتهاد المطلق، وهي درجة راجعة إلى التشمير عن ساعد الجد، بدراسة الكتاب والسنة، والنهل منهما مباشرة، مع التفرغ لدراسة المنهجية الأصولية، التي هي آلة التمكن والتمكين من مَلَكَةِ

(١) دَرِبَ بالأمر يَدْرَبُ به دَرَبًا: إذا تَدَرَّبَ عليه، انظر. لسان العرب، مادة: « درب ».

الاجتهاد، مع الاشتغال بدراسة « الخلاف العالي » الذي يتضمن قواعد الفقه وأصوله المطبقة، مما يُدَرِّبُ الطالب – زيادة على معرفة مواطن الإجماع والاختلاف – على اكتساب مهارة الفهم والاستدلال؛ بما لا يتيحه له علم آخر، ولنا في هذا تفصيل يأتي بهذه الورقات – إن شاء اللّـه –.

ب– وإما يكون ممن لا طاقة له على التفوق والنبوغ، فلا يُرجى أن يكون من الأبدال المجددين والعلماء الراسخين، وإنما غايته المساعدة في هذا الأمر، تحت إمرة العلماء من النوع الأول، الذين هم العلماء حقًّا. وإذن؛ يكفيه حفظ المسائل الفقهية على مذهب مالك بن أنس ﷺ للأسباب التي ذكر الباجي وغيرها، مما سنشير إليه في دراسة أصول هذه الوصية العلمية – بحول اللّـه –.

سادسًا: الاشتغال بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يتعلق بذلك من وظائف دعوية وتربوية، وهو قوله رحمه اللّـه: (وعليكما بالأمر بالمعروف، وكونا من أهله! وانهيا عن المنكر، واجتنبا فعله! وأطيعا من وَلَّاهُ اللّـه أَمْرَكُما، ما لم تُدْعَيَا إلى معصية؛ فيجب أن تمتنعا منها، وتبذلا الطاعة فيما سواها!).

وأنتَ تلحظ كيف قَرَنَ بين المهمة الإصلاحية وبين طاعة أولي الأمر، وإنما القصد من ذلك ألا يكون منهج

الإصلاح قائمًا على العنف واتباع الأهواء وإثارة الفتن؛ بما يؤدي إلى عكس النتائج المرجوة من العملية الإصلاحية، وهو مذهب أهل السنة والجماعة في معالجة الشأن السياسي، في سياقه الديني والإصلاحي عمومًا.

وقد كرر – رحمه اللّـه – ذلك لهم وفصل في بيانه، بما يمكِّن العالم من ضبط « فقه الموازنات » و« مراتب الأولويات » في إطار النظر الكلي للشأن الديني جملة، كما هو في الإسلام، وكما هو في حقيقة التصور المنهجي السليم الذي ينبغي أن يكون عليه فهم المسلم – بله العالم – للدين، عقيدةً وشريعةً.

ولذلك أشار إلى بعض الاختلالات المنهجية التي قد تقع في هذا السياق، إذا لم يحترم العالم الداعية هذا الفقه العظيم، قال رحمه اللّـه: (وعليكما بطاعة من ولاه اللّـه أمركما فيما لا معصية فيه للّـه تعالى، فإن طاعته من أفضل ما تتمسكان به، وتعتصمان به ممن عاداكما، وإياكما والتعرضَ للخلاف لهم، والقيام عليهم؛ فإن هذا فيه العطب العاجل، والخزي الآجل! ولو ظفرتما في خلافكما، ونفذتما فيما حاولتما؛ لكان ذلك سبب هلاككما؛ لما تكتسباه من المأثم، وتُحْدِثَانِ على الناس من الحوادث والعظائم! (...) فالتزما الطاعة وملازمة الجماعة، فإن السلطان الجائر الظالم أرفق

بالناس من الفتنة، وانطلاق الأيدي والألسنة!).

وهذا نظرٌ عجيبٌ إلى طبيعة التوازنات السياسية، واعتبار دقيق لسائر الاحتمالات الممكنة، مما هو مترصد في الواقع الاجتماعي والسياسي يترقب، مما لا يجلب - إن تمكن - إلا الضرر للإسلام والمسلمين، وليس معنى ذلك أن الإنسان ينخرط في مسالك الفساد إذا كان السلطان جائرًا، كلَّا؛ ولذلك فإن أبا الوليد - في الآن نفسه - حذر بالمقابل من صحبة السلاطين! إذا كانت الصحبة بقصد طلب العز والجاه عنده؛ مما يؤدي إلى التزلف المذل والنفاق البغيض! وهو أمر يخالف مقتضى العالِمِيَّةِ الحقة! اللهم إلا ما دعت إليه ضرورة شرعية، وأولوية فقهية، ونظر إصلاحي صادق! مع مراعاة مزالق النفس وشهواتها، واتخاذ كامل الحيطة من أهوائها؛ وفي ذلك قال - رحمه اللّـه - كلامًا عجيبًا، يدل على ما كان له من فهم دقيق، وتجربة عميقة في هذا المجال، قال: (واجتنبا صحبة السلطان ما استطعتما، وتَـحَرَّيَا البعد منه ما أمكنكما؛ فإن البعد منه أفضل من العِزِّ بالقرب منه! فإن صاحب السلطان خائف لا يأمن، وخائن لا يُؤْمَنُ! ومُسِيءٌ إنْ أحْسَنَ! يُخَافُ منه، ويُخاف بسببه، ويتهمه الناسُ من أجله، إن قُرِّبَ فُتِن، وإن أُبعِدَ أُحْزِنَ. يَحسدك الصديقُ على رضاه إذا رضي، ويتبرأ منك ولدُك

ووالدُك إذا سخط! ويكثر لائموك إن مَنَعَ، ويقل شاكروك إذا أَشْبَعَ! (...) فإن امْتُحِنَ أحدُكم بصحبته، أو دعته ضرورةٌ؛ فليتقلل من المال والحال، ولا يغتب أحدًا عنده، ولا يطالب عنده بشرًا، ولا يعص له في المعروف أمرًا، ولا يستزله إلى معصية اللّـه تعالى، فإنه يطلبه بمثلها، ويصير عنده من أهلها، وإن حظي عنده بمثلها في الظاهر؛ فإن نفسه تمقته في الباطن!).

فتبين إذن؛ أن الشأن السياسي عنده دين، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فلينظر المرء ما يستطيع أن يتقرب به من ذلك - غيرَ خَجِلٍ - إلى ربه! غير متأثر بنـزعة حزبية، ولا هوى، أو سمعة، أو رياء، وذلك موطنٌ زلت به أقدام وأفهام! وإنما الموفق من وفقه اللّـه تعالى برحمته وفضله.

سابعًا: ثم أمرهما - بعد هذا وذاك - بالتزام الأخلاق الإسلامية، من صدق وأمانة ووفاء بالعهد، وترك للظلم، وخاصة ما يتعلق منه بالدماء، فقال: (وإياكما والعونَ على سفك دم بكلمة، أو المشاركة فيه بلفظة! فلا يزال الإنسان في فسحة من دينه؛ ما لم يغمس يده أو لسانه في دم امرئ مسلم!)، ثم أوصاهما باجتناب أمهات الرذائل جملة؛ كالزنى، وشرب الخمر، والربا، والنميمة، والحسد،

والفواحش، والغيبة، والكبر، والبخل، وشهادة الزور، والرشوة، وسائر أنواع الملاهي، من غناء، ولعب بالنرد، وما شابه ذلك، مما لا يليق بالعلماء، ولا يجمل بالصالحين والفضلاء.

وأما القسم الدنيوي من الوصية فهو في الحقيقة لا يخرج عن القسم الديني؛ إذ هو راجع إلى جماع مكارم الأخلاق في العلاقات الاجتماعية، مما به يكون عون طالب العلم على التحقق من صفة العالِميَّة على المستوى الاجتماعي، فقد أوصى بتمتين العلاقات الأسرية، من صلةٍ للأرحام، وخدمة للأقارب، وحفظ وحدة الأسرة، والتَّقَوِّي باجتماع كلمتها، ومراعاة حقوق الجوار والأصدقاء، ومداراة الأعداء، وغير ذلك مما به تسلس القيادة العلمية والتربوية، وترسخ السيادة الاجتماعية للعالِمِ، قال رحمه اللّـه: (وأما القسم الثاني مما يجب أن تكونا عليه وتتمسكا به؛ فأن يلتزم كلُّ واحد منكما لأخيه بالإخلاص والإكرام، والمراعاة في السر والعلانية، والمراقبة في المغيب والمشاهدة) إلى أن يقول: (ثم عليكما بمواصلة بني أعمامكما وأهل بيتكما والإكرام لهم (...) فإن ذلك مما تسودان به في عشيرتكما، وتعظمان به عند أهل بيتكما).

ثم أوصى – بعد الرحم – بالجار، وبأهل مودة أبيهما من

أصحابه رحمه اللّـه، وعدم التعرض لأحد بالعداوة، ونبذ خلة الانتقام، والتزام الصبر إزاء كل من تعرض لهما بالإذاية.

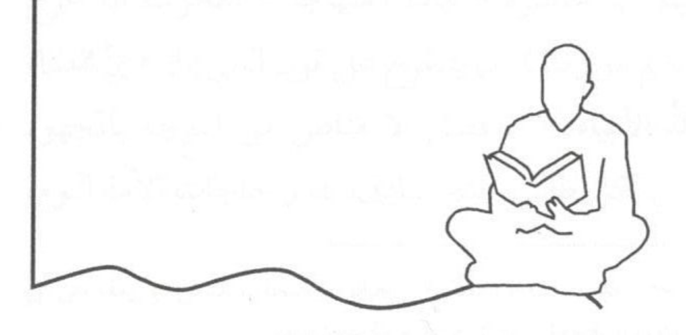
وختم وصيته – رحمه اللّـه – بالتحذير من الاستكثار من الدنيا وحطامها! وعدم التنافس في امتلاك الأصول من ضيعات وعقارات، وقال: (وإياكما والاستكثارَ من الدنيا وحطامها! وعليكما بالتوسط فيها (...) ومَنْ رُزِقَ منكما مالًا؛ فلا يجعل في الأصول إلا أقلَّه! فإن شغبها طويل، وصاحبها ذليل!)، ثم كان آخر الكلام قوله: (وإني لأوصيكما وأعلم أني لن أغني عنكما من اللّـه شيئًا ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٧] وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ !).

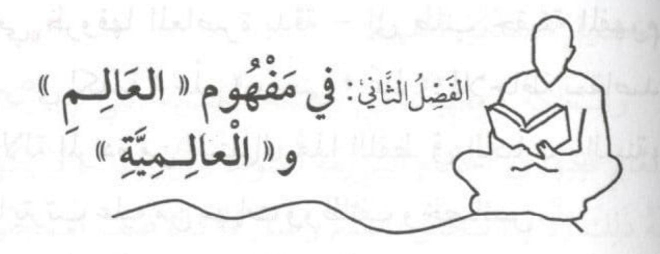
وعليه؛ فإننا – بحول اللّـه – نشرع في دراسة ما تَحَصَّلَ لنا من أمور منهجية، وقضايا معرفية، في تحقيق مفهوم « العَالِـمِ » و« العالِـمِيَّة »، وما تَرَتَّبَ عنهما من وظائف وبرامج، مسترشدين بوصية أبي الوليد الباجي – رحمه اللّـه –، ومستعينين بنصوص نادرة من كتب التراث، وكلمات عزيزة مأثورة عن أهل العلم، من الحكماء الربانيين، والعلماء المجدِّدِين، مؤصلين ذلك كله في كتاب اللّـه، وسنة نبي اللّـه ﷺ، ومحقِّقِين لمناطاته على مقتضيات واقعنا

المعاصر؛ حتى يتبين لطالبِ العالِميَّةِ الصادق كيف يسلك طريق الطلب، في هذا العصر العصيب، وظروفه الشديدة؛ بما لَابَسَهَا من فتن ومحن، أحاطت بهذا العلم، خاصة علم الشريعة! وليكن أول كلامنا في تحقيق مفهوم « العَالِـمِ » و« العَالِـمِيَّةِ »؛ **فنقول وباللّـه التوفيق:**

الفَصْلُ الثَّاني

في مَفْهُوم العَالِـم والْعَالِـميَّةِ





الفَصلُ الثَّاني: في مَفْهُوم « العَالِـم » و« العَالِـمِيَّة »

لا أحد يماري في أهمية العلم والعلماء في حركة تجديد الدين، ومركزية دورهم في التوجيه والتأطير؛ تعليمًا وتزكية، وما فساد أمر الدعوة في كثير من المواطن إلا بسبب غياب العلماء عن مواقع صناعة قرارها وتوجيهها. والنصوص القرآنية والحديثية في ذلك متضافرة مستفيضة، ومن هنا فلا أحد يماري في أن « الأزمة » الحقيقية الواقعة في الشأن الديني والدعوي اليوم إنما هي أزمة « عِلْم » بما لكلمة (علم) من دلالة قرآنية شاملة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والقضية أن معاهد تكوين العلماء في الأمة اليوم قد أُحِيطَ بها مُحَاصَرَةً – مادةً ومنهاجًا – فعجزت أن تُخَرِّجَ « العالِمَ الوارِثَ »، بما يتخرج على قول النبي ﷺ: « إِنَّ العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياء »[1]، فصار لا مناص من التوجه بالمجهود الذاتي لكل طالب علم صادق، يقدر حاجات الأمة اليوم،

---

(١) جزء حديث، رواه أحمد، وابن حبان، وأصحاب السنن الأربعة، عن أبي الدرداء، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

ويعي ظروفها المعاصرة بدقة - إلى طلب حقيقة المفهوم الشرعي لكلمة « عِلْم » ومعنى « عَالِمٌ »؛ للإحاطة بمقاصد الدلالة المرادة من استعمال هذا اللفظ في الكتاب والسنة، وما يترتب عليه من مهمات ووظائف وخصائص.

فـ « الْعَالِمِيَّةُ »: هي صِفَةٌ كَسْبِيَّةٌ فِي مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا، يَكُونُ الْـمُتَحَقِّقُ بِهَا « إِمَامًا » فِي الدِّينِ تَعْلِيمًا وَتَزْكِيَةً.

والْعَالِمُ: هو الفَقِيهُ الْـمُجْتَهِدُ، الرَّبانِيُّ الْحَكِيمُ، الَّذِي تَـحَقَّقَ بِالْعِلْمِ وصَارَ لَهُ كالْوَصْفِ الْـمَجْبُولِ عَلَيْهِ، وَفَهِمَ عَنِ اللَّـه مُرَادَهُ؛ فَصَارَ يُرَبِّي بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِه[1].

فبمقتضى هذين التعريفين لمفهوم « العَالِـم » و« العَالِـمِيَّة » لا يكون العالمُ عَالِـمًا على الحقيقة إلا بتوفرِ مَاهِيَّةِ « عَالِـمِيَّتِه » على ثلاثة أركان، هي:

١ - **الْـمَلَكَةُ الفِقْهِيَّةُ**: وهي غاية مراحل الطلب، وزبدة مسيرة العلم، وقد سبق قول الباجي في وصيته لولديه، في سياق حضهما على طلب العلم: (فاجتهدا في طلبه، واستعذبا التعبَ في حفظه، والسهرَ على درسه، والنَّصَبَ الطويلَ في جمعه، وواظبا على تقييده وروايته، ثم انتقلا إلى فهمه ودرايته!)؛ فالانتقال إلى « الفهم والدراية » إنما هو

(١) هذان التعريفان مستفادان من عبارات لأبي إسحاق الشاطبي كما سيأتي بيانه.

لتحصيل الْـمَلَكَةِ الفقهية.

والْـمَلَكَةُ الفِقْهِيَّةُ: هي الصفة الكسبية التي بها يكون العالمُ فَقِيهًا فِي أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا. ولَا يكونُ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا إذا تَـحَقَّقَ بِالْعِلْمِ وصَارَ لَهُ كالْوَصْفِ الْـمَجْبُولِ عَلَيْهِ، وَفَهِمَ عَنِ اللَّـه مُرَادَهُ، ومعناه أنه تفرغ لاكتساب العلم وطلبه، وقطع كل أشواط الطلب حتى تحقق بالصفة تحققًا لم يعد له فيها من كَلَفَةٍ، أي أنه صار متمكنًا من المنهجية العلمية في البحث والتفكير؛ حتى صار يمارس ذلك بنوع من التلقائية، وهي المعبَّر عنها عند الفقهاء « بالْـمَلَكَةِ ». وإنما هي: خِبْرَةٌ مَنْهَجِيَّةٌ في معالجة النصوص الشرعية فهمًا واستنباطًا، وتحقيق مناطاتها تنزيلًا، وهو معنى « الفقه في الدين » بمعناه الكلي فهمًا وتطبيقًا، كما ورد في حديث الرسول ﷺ: « **مَنْ يُرِدِ اللَّـه بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ!** »[1].

ولذلك كان الفقهاء من أهل العلم - بهذا المعنى - هم المرجع للأمة في كل شيء، وذلك مقتضى قول اللَّـه جل وعلا: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣]، والاستنباط هو عين مَلَكَةِ الفقه كما وصفنا،

(١) متفق عليه.

ومن هنا قلنا: إنها غاية مراحل الطلب، وزبدة مسيرة العلم.

وفي ذلك يقول أبو إسحاق الشاطبي – رحمه اللّه – بأن العالِمَ هو الذي: « يَتحقَّقُ بالمعاني الشرعيةِ منزلةً على الخصوصياتِ الفرعيةِ، بحيثُ لا يَصُدُّهُ التَّبحُّرُ في الاِسْتِبْصَارِ بِطَرَفٍ عَنِ التبحُّرِ في الاِسْتِبْصَارِ بالطَّرَفِ الآخَرِ، فلا هو يَجْرِي عَلَى عُمُومِ وَاحِدٍ منهما دون أنْ يَعْرِضَهُ علَى الآخَرِ، ثم يَلْتَفِتُ مَعَ ذَلِكَ إلى تَنـزُّلِ ما تَلخَّصَ لَهُ على ما يليقُ في أفعالِ المكلَّفِين (...)، وهذه الرتبةُ لا خِلَافَ في صِحَّةِ الاجتهادِ من صاحبِها.

وحَاصِلُهُ: أنه مُتمكِّنٌ فيها، حَاكِمٌ غيرُ مَقْهُورٍ فيها (...)، وَكُلُّ رُتْبَةٍ حَكَمَتْ على صاحبِها دَلَّتْ على عَدَمِ رُسُوخِهِ فيها! وإنْ كانَتْ مَحْكُومًا عليها تحتَ نَظَرِهِ وقَهْرِهِ؛ فهو صاحبُ التَّمْكِينِ والرُّسُوخِ، فهو الذي يستحق الاِنْتِصَابَ لِلاجْتِهَادِ، والتَّعرُّضَ للاسْتِنبَاطِ (...)، ويُسَمَّى صاحبُ هَذِهِ المرتبةِ: الرَّبَّانِيُّ، والحَكِيمُ، والرَّاسِخُ في العِلْمِ، والعَالِمُ، والفَقِيهُ، والعَاقِلُ؛ لأنه يُرَبِّي بِصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِه، ويُوَفِّي كُلَّ أحَدٍ حَقَّهُ حسبما يليق به.

وقد تَـحقَّقَ بِالْعِلْمِ وصارَ لَهُ كالْوَصْفِ الْـمَجْبُولِ عَلَيْهِ، وفَهِمَ عَنِ اللّـه مُرَادَهُ، ومِنْ خَاصَّتِهِ أَمْرَانِ؛ أحدُهُمَا: أنَّهُ

يجيب السَّائِلَ على ما يليق به في حالتِه على الخصوص، إن كان له في المسألة حُكْمٌ خاصٌّ (...)، والثاني: أنه نَاظِرٌ في المآلَاتِ قَبْلَ الجوابِ عن السُّؤَالَاتِ! »[1].

ودونَ ذلك مراحلُ من طلب العلم، وشروطٌ في منهجية اكتسابه، سيأتي بيانها بهذه الورقات إن شاء اللّه.

ذلك؛ وأما الركن الثاني فهو:

٢- **الرَّبَّانِيَّةُ الإِيـمَانِيَّةُ**: وهي أغلب مادة وصية الباجي – رحمه اللّـه –، بها كان البدء وإليها كان المنتهى! وإنما افتتح كلامه – كما رأيتَ – بتذكيرِ وَلَدَيْهِ بالوراثة الإيمانية في « آل خَلَفٍ »، ثم قال لهما: (وأول ما أوصيكما به ما أوصى به ﴿ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وكان الختم بنصحهما بالزهد في الدنيا والتَّقَلُّلِ من حطامها، مع ما تخلل جُلَّ كلماته من نصائح تربوية غالية، وذلك هو الزاد العظيم لطالب العلم أنَّى كان، فيا لَـتَعْسَ من حُرِمَهُ!

والرَّبَّانِيَّةُ الإِيـمَانِيَّةُ: وهي مُقَارَبَةُ الْكَمَالِ في مَسْلَكِ التَّخَلُّقِ بأخلاقِ القرآن، والتَّحقُّقِ مِنْ صِفَتَيْ التَّقْوَى والوَرَعِ؛ مِنْ أَجْلِ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ باللّه والتَّعرُّفِ إليه تعالى،

(1) الموافقات: (٤ - ٢٣٢).

ولا يكونُ لَهُ ذلكَ إلاَّ بِمَا حَصَّلَ مِنْ مَكَاسِبِ الأعْمَالِ، وبما تَرَقَّى في مَدَارِجِ التزكية الإيمانية، وَمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ، عبر منازل التعبد ومراتب الإخْلَاصِ؛ حتى يخرج خروجًا كليًا عن داعية هواه، ويكون عبدًا خالصًا للَّـه؛ فالخلوص الكامل للَّـه هو تمام العلم باللَّـه(١)، وهو مقتضى قولِ اللَّـه جل وعلا: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]، قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية: (يعني بـ « العلماء »: الذين يخافون قدرته، فمن عَلِمَ أنه عَجَّلَ قدير؛ أيقن بمعاقبته على المعصية، كما رَوَى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]، قال: « الذين عَلِمُوا أنَّ اللَّـه على كل شيء قدير! »، وقال الربيع بن أنس: « من لم يخش اللَّـه تعالى فليس بعالم! »، وقال مجاهد: « إنما العالِمُ من خشي اللَّـه عَجَّلَ »، وعن ابن مسعود: « كفى بخشية اللَّـه تعالى علمًا، وبالاغترار جهلًا! »، وقيل لسعد بن إبراهيم: « من أفقه أهل المدينة؟ قال: أتقاهم لربه عَجَّلَ ». وعن مجاهد قال: « إنما الفقيه من يخاف اللَّـه عَجَّلَ! »)(٢).

وأخرج أبو عمر يوسف بن عبد البر عن الإمام مالك ابن أنس - رحمة اللَّـه عليهما - قال: (إنَّ حَقًّا على من يطلب

(١) ولا يخلص شيء من ذلك كله إلا بتمام الاتباع للسنة في السير إلى اللَّـه جل علاه.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: (١٤ - ٣٤٣).

الحديثَ أن يكونَ له وَقَارٌ، وسَكِينَةٌ وَخَشْيَةٌ، وأنْ يكون مُتَّبِعًا لآثارِ مَنْ مضَى قَبْلَهُ)(١)، وأخرج الدارمي في سننه عن سفيان الثوري قال: (كان يقال: « العلماءُ ثلاثة: عالِمٌ باللَّـه يخشى اللَّـه، ليس بعالِمٍ بأمرِ اللَّـه. وعالِمٌ باللَّـه، عالِمٌ بأمرِ اللَّـه يخشى اللَّـه؛ فذاك العَالِمُ الكَامِلُ! وعالِمٌ بأمرِ اللَّـه، ليس بعالِمٍ باللَّـه لا يخشى اللَّـه؛ فذلك العَالِمُ الفَاجِرُ! »)(٢). فـ « العالِمُ بأمرِ اللَّـه »: هو العالِمُ بأحكام الشريعة وفقهها، و« العالِمُ باللَّـه »: هو العارف بمقتضيات العلم الحق، من العلم بشؤون ربوبيته تعالى، وجمال أسمائه الحسنى وصفاته العُلا، فيكون العالم باللَّـه هو الخاشِعُ للَّـه الخاضِعُ له؛ بما تزود من حقائق الإيمان والمعرفة به تعالى، والعالم الحق إنما هو من جمع بينهما؛ ولذلك قال الحسن البصري رحمه اللَّـه: (كان الرَّجُلُ إذا طَلَبَ العلمَ لم يَلْبَثْ أنْ يُرَى ذلك في بَصَرِهِ، وتَخَشُّعِهِ، ولِسَانِهِ، ويَدِهِ، وصَلاتِه، وزُهْدِهِ!)(٣).

وللخطيب البغدادي - رحمه اللَّـه - وصيةٌ لطيفة في هذا الشأن نقتطف منها ما يلي، قال: (إني مُوصِيكَ يَا طَالِبَ العلم بإخلاصِ النية في طلبه، وإجهاد النفس على العمل

(١) جامع بيان العلم وفضله: (٢/ ٢٥).
(٢) سنن الدارمي: (١/ ١١٤).
(٣) المرجع السابق: (١/ ١١٨).

بِمُوجِبِه، فإن العلم شجرة، والعمل ثمرة، وليس يُعَدُّ عالمًا من لم يكن بِعِلْمِه عَامِلًا (...) وما شيءٌ أَضْعَفَ من عَالِمٍ تَرَكَ النَّاسُ عِلْمَهُ لِفَسَادِ طريقتِه! وجَاهِلٍ أَخَذَ النَّاسُ بجهلِه؛ لِنَظَرِهِمْ إلى عِبادَتِه! (...) والقليلُ من هذا مع القليلِ من هذا أنجى في العاقبة، إذا تفضل اللّه بالرحمة، وتمم على عبده النعمة. فأما المدافعة والإهمال، وحب الهُوَيْنَى والاسترسال، وإيثار الخفض والدَّعَةِ، والميل مع الراحة والسَّعَةِ؛ فإن خواتم هذه الخصال ذميمة، وعقباها كريهة وَخِيمَة! والعلم يراد للعمل، كما العمل يراد للنجاة)[1].

قلت: وذلك كله إنما هو وسيلة إلى غاية الغايات، ومنتهى الكمالات! وهو « مقام الرَّبَّانِيَّةِ الإيمانية »! التي هي « العلم باللّه » على التحقيق، مما نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وهو عمل قلبي خالص، على ما شرحناه وبيناه في التعريف المذكور بهذا الركن.

وبيان ذلك أن ما تَلَخَّصَ من مفهوم العِلْمِ - مِنْ كُلِّ مَا ذُكِرَ مِنْ أَصْنَافٍ - إنما هو عِلْمَانِ، أحدهما وسيلة للآخر:

- **فالعلم الأول**: ينتج عن تلقي الكتاب والسنة، وعن الفقه المستنبط منهما، وغاية هذا العلم إنما هي العمل به، مما

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي: (١٤، ١٥).

أنيط بالمكلف من سائر أنواع العبادات - فِعْلًا وتَرْكًا - وهذا كله - عِلْمًا وعَمَلًا - إنما هو وسيلة للآتي، وهو:

- **العلم الثاني**: وهو العلم باللّه! وإنما هو نتاجُ لخالص الأعمال، من العبادات والمجاهدات المترتبة عن العلم الأول، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢، ٣]، فإذا عَمِلَ العبدُ بمقتضاه آتاه اللّه عِلْمًا من نوع آخر، هو العلم باللّه! وهو قول اللّه تعالى في محكم كتابه: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وهنا زَلَّتْ أقدامُ بعضِ جَهَلَةِ العُبَّادِ، ممن توهموا الوصول إلى غايةِ العلم، ورأسِ الحكمة، التي هي العلم باللّه من غير العبور على طريق الشريعة، ومن غير الدخول إلى ميدان الأعمال؛ فاستغرقوا أوقاتهم في متاهات الخيال، واستدرجهم الشيطان إلى شطحات الخبال؛ ولذلك فليس عبثًا أن يقول الرسول ﷺ في حكمته البالغة: « **فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كفضلي على أدناكم!** »[1].

والمقصود أن غاية العلم والعمل إنما هي العلم باللّه! كما أن العلم باللّه هو منتهى السعادة في الآخرة، فإذا صح

(١) رواه الترمذي عن أبي أمامة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٤٢١٣).

للعبد العلم بأمر اللَّـه وما يقتضيه من الأعمال التكليفية؛ أُوتِيَ الحكمةَ الحقة التي قال فيها الحقُّ جل جلاله: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وبهذا المعنى كان رسول اللَّـه – سيد الأولين والآخرين – أعلم الخلق باللَّـه! وهذه أغلى حكمة تداولها السلفُ نَقْلًا واستنباطًا! ومن ضيع هذه (البوصلة) اللطيفة ضاعت منه غايةُ العلم والعمل معًا.

وهذا المعنى العظيم في السنة الصحيحة تأصيلاتٌ مليحةٌ! ففي صحيح البخاري حديثٌ جليلٌ ترجم له المصنِّفُ – رحمه اللَّـه – بقوله: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: « أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّـه! »، وأنَّ المعْرِفَةَ فِعْلُ القَلْبِ؛ لِقَوْلِ اللَّـه تعالَى: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥])، ثم أخرج حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: (كَانَ رَسُولُ اللَّـه ﷺ إذا أَمَرَهُمْ؛ أَمَرَهُمْ مِنَ الأعمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ؛ قَالُوا: إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّـه! إِنَّ اللَّـه قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؛ فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الغَضَبُ فِي وَجْهِهِ! ثُمَّ يَقُولُ: « إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّـه أَنَا! »).

فترجمة البخاري للباب فيها من الفقه أن معنى (العلم باللَّـه) هو: ما يحصل للقلب من المعرفة به تعالى، وما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه من حقوق؛ بمقتضى تلك

المعرفة، وأن الرسول الكريم – عليه الصلاة والسلام – كان أعلم الخلق باللَّـه.

ولهذا قال سفيان الثوري – رحمه اللَّـه –: (أفضلُ العِلْمِ العِلْمُ باللَّـه، والعِلْمُ بأمرِ اللَّـه! فإذا كان العبد عالمًا باللَّـه، وعالمًا بأمرِ اللَّـه؛ فقد بَلَغَ! ولم تَصِلْ إلى العبادِ نِعْمَةٌ أفضلُ من العِلْمِ باللَّـه، والعِلْمِ بأمرِ اللَّـه! ولم يصل إليهم عُقُوبَةٌ أشَدُّ من الجهلِ باللَّـه، والجهلِ بأمر اللَّـه!)(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولا ريبَ أن لذة العلم أعظم اللذات! واللذةُ التي تبقى بعد الموت، وتنفع في الآخرة؛ هي لذة العلم باللَّـه، والعمل له، وهو الإيمان به)(٢)، وقال في موطن آخر: (إنَّ العِلْمَ الذي هو أصْلُ السَّعادَةِ ورأسُهَا هو العِلْمُ بِاللَّـه!)(٣).

وقال في ملاحظة لطيفة جدًّا: « ليس في الدنيا من اللذات أعظم من لذة العلم باللَّـه! وذِكْرِهِ وعِبادتِه؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول: « حُبِّبَ إِلَيَّ من دنياكم النساءُ والطيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة! »(٤)، هكذا لفظ الحديث، لم يقل:

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم: (٧/ ٢٨١).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: (١٤/ ١٦٢).

(٣) الصفدية: (٢/ ٢٥٠)، بتحقيق محمد رشاد سالم.

(٤) رواه أحمد والنسائي والطبراني والبيهقي وأبو يعلى، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

« حُبِّبَ إليَّ ثلاثٌ »؛ فإن المحبَّبَ إليه من الدنيا اثنان، وجُعلت قُرَّةُ عينه في الصلاة! فهي أعظم من ذَيْنِكَ، ولم يجعلها من الدنيا!)(١).

ومن هنا كان العلم باللّه هو غاية العلوم والأعمال كلها؛ لأنه العلم الباقي حقًّا، المستمر أبدًا! وإنما شُرِعَتِ الأعمالُ التعبدية للتعريفِ باللّه؛ إذْ لا معرفةَ للعبد في شرع اللّه إلا بها، وهي لا قيام لها إلا بالعلم بأمر اللّه الذي هو أحكام الشريعة! ومِنْ هُنا كان مطلقُ العلمِ مَرَاتِبَ ودرجاتٍ، بعضُها وسيلةٌ إلى بعض، ومنزلةٌ ترتقي بصاحبها إلى التي تليها؛ حتى تنتهي كلُّها إلى غاية الغايات، التي هي العلم باللّه! وإنما يكون العلم باللّه على كمالِهِ وتمامِهِ هناك في الآخرة بدار السعادة، وهذا من ألطف المعاني الواردة عن السلف الصالح، فتدبر..!

قال ابن رجب الحنبلي - رحمه اللّه -: (العلم قسمان؛ **أحدهما**: ما كان ثمرته في قلب الإنسان، وهو العلم باللّه تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، المقتضي لخشيته، ومهابته، وإجلاله، والخضوع له، ومحبته، ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، ونحو ذلك؛ فهذا هو العلم النافع. (...)، **والقسم الثاني**: العلم الذي على اللسان، وهو حُجَّةٌ لَكَ

(١) الصفدية: (٢/ ٢٧٢).

أو عليك! فأول ما يُرْفَعُ من العِلْمِ العِلْمُ النافعُ، وهو الباطن الذي يخالط القلوب ويصلحها. ويبقَى عِلْمُ اللسان حُجَّةً، فيتهاون الناس به، ولا يعملون بمقتضاه، لَا حَمَلَتُهُ وَلَا غَيْرُهُمْ، ثم يذهب هذا العلم بذهاب حَمَلَتِه، فلا يبقى إلا القرآن في المصاحف! وليس ثَمَّ من يعلم معانيه، ولا حدودَه ولا أحكامَه!)(١).

ثم قال - رحمه اللّه - في تفصيل عجيب وتقريب لبيب: (كمال الدنيا إنما هو في العلم والعمل، والعلم مقصود الأعمال! فتضاعفَ في الآخرة بما لا نسبة لما في الدنيا إليه؛ فإن العلم أصله العلم باللّه، وأسمائه وصفاته. وفي الآخرة ينكشف الغطاء (...) وتصير المعرفةُ باللّه رؤيةً له، ومشاهدةً! فأين هذا مما في الدنيا؟ وأما الأعمال البدنية فإن لها في الدنيا مقصدين؛ **أحدهما**: اشتغال الجوارح بالطاعة، وكَدُّهَا بالعبادة، **والثاني**: اتصال القلوب باللّه، وتنويرها بذِكْرِهِ؛ فالأول قد رُفِعَ عن أهل الجنة! (...)، وأما المقصود الثاني: فحاصلٌ لأهل الجنة على أكمل الوجوه وأتمها، ولا نِسْبَةَ لِمَا حَصَلَ لقلوبهم في الدنيا من الأنس والاتصال؛ إلى ما يشاهدونه في الآخرة عيانًا! فَتَتَنَعَّمُ قُلُوبُهم وأبصارُهم وأسماعُهم بِقُرْبِ اللّه،

(١) جامع العلوم والحكم: (٣٤٣).

ورؤيته، وسماعِ كلامه! (...) فالذي يحصل لأهل الجنة من تفاصيل العلم باللـه، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، ومن قربه، ومشاهدته، ولَذَّةِ ذِكْرِه (...) هو مما لَا عَيْنٌ رَأَتْ، ولَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولَا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ..! واللـه تعالى المسؤول أن لا يحرمنا خيْرَ ما عنده بِشَرِّ ما عندنا؛ بِمَنِّهِ وكَرَمِه ورحمتِه، آمين!)[1].

وخلاصة المسألة أن قصة الدِّينِ عِبارَةٌ عن دَوْرَةٍ أَشْبَهَ مَا تكون بِدَوْرَةِ الفَلَكِ، يسلكها المؤمن، فتنطلق به أوَّلًا من العلم المنـزلِ من عند اللـه، وهو الوحي كتابًا وسنةً، وما يُستنبط منهما، ثم تَدْخُلُ به إلى مَدَارِ الأعمال؛ لِتُوَرِّثَهُ بعد ذلك خالصَ العلمِ باللـه؛ مما يزيده شوقًا ومحبةً للـه؛ فيزداد عملًا للـه، ثم يزداد بذلك عِلْمًا باللـه! ثم يُوَرِّثُهُ هذا عملًا فيزداد عِلْمًا..! وهكذا يمضي في فَلَكِهِ حتى يَلْقَى ربَّه، فينكشف الغطاء، ويتم له العلم الأكمل باللـه، وهو الرؤية السعيدة لربه جَلَّ عُلَاهُ! وذلك هو بحر السعادة والجمال! وهو قول اللـه تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقول رسول اللـه ﷺ على سبيل التفسير والبيان، مما يرويه جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللـه رضي الله عنه قال: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللـه ﷺ؛ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: (أَمَا

(١) جامع العلوم والحكم: (٢٩٩).

إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ! فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا!) يَعْنِي الْعَصْرَ وَالْفَجْرَ، ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠])[1].

وعليه؛ فإن العالِمَ إذا تجرد عن أهوائه تجردًا كاملًا، وانخرط في مسيرة العلم – بهذا المفهوم – انخراطًا شاملًا؛ كان عالِمًا باللـه حقًّا، وأشرق عليه نُورُ الوِلَايَةِ صِدْقًا، وصار مَحَلًّا للاقتداء في قوله وفعله وإقراره؛ بما نال من سِرِّ الرَّبَّانِيَّةِ؛ وبما قام في الأمة من مَقَامِ النُّبُوَّةِ؛ خِلَافَةً في التربيةِ، وإِمَامَةً في الدِّين! وبيان ذلك هو مقتضى الركن الثالث؛ وهو:

٣- **القِيَادَةُ التَّرْبَوِيَّةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ:** وهي وظيفة العالِمِ الإصلاحية، وحَقُّ العِلْمِ المتعلق بذمته! وإنما منطلقها صريح القرآن الكريم، قال اللـه جل جلاله: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وهي راجعة إلى واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بحق النذارة، وأما الأحاديث في هذا المعنى فأكثر من أن تُحْصَى![2] ويكفيك

(١) متفق عليه.

(٢) سيأتي ذكر بعضها بهذه الورقات – إن شاء اللـه – ولك أن تنظر ما استقريناه =

منها قولُه ﷺ: « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْـجَمَهُ اللَّـه يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ! »[1]؛ ولذلك قال الباجي لِوَلَدَيْه بعدما حضهما على طلب العلم: (وعليكما بالأمر بالمعروف، وكونا من أهله! وانهيا عن المنكر، واجتنبا فعله!)، ولا يكون للعالِمِ قدرةٌ حقيقية على ذلك إلا إذا تبوأ مركزَ قيادةٍ تربويةٍ اجتماعيةٍ بين الناس.

والقِيادَةُ التَّرْبَوِيَّةُ الاجْتِماعِيَّةُ: هي الانْتِصابُ لِتَرْبِيَّةِ الْخَلْقِ بما آتاه اللَّـه من عِلْمٍ وصلاحٍ في نفسه، وبما اكتسب في طريق ذلك كُلِّهِ من بصيرةٍ قلبيةٍ، وخِبْرَةٍ دعويةٍ، وصِناعَةٍ تربوية؛ حتّى انْقَدَحَتْ في قَلْبِهِ الْحِكْمَةُ، وهي: نور يقذفه اللَّـه في قلب العبد؛ يكون بمقتضاه مُبْصِرًا بِنُورِ اللَّـه! يُراعِي المناسبات الزمانية والمكانية والحالية، في تنزيل الأحكام الشرعية والتوجيهات الدينية؛ مما يؤهله للإمامة العلمية والقيادة التربوية، قديرًا على توجيه المجتمع بعِلْمِهِ وخُلُقِه، واستيعاب سائر الناس، على مختلف مشاربهم، وطبقاتهم، وشرائحهم، واختصاصاتهم، وذلك هو الحكيم

= من ذلك في كتابنا: البيان الدعوي، وكذا كتابنا الفجور السياسي، وهو من الكليات القطعية في الدين والدعوة إليه.

(١) رواه أصحاب السنن الأربعة، وأحمد، والحاكم، وابن عبد البر في جامع بيان العلم؛ عن أبي هريرة. كما رُوِيَ عن عبد اللَّـه بن مسعود، وعبد اللَّـه بن عمرو بن العاص، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم: (٦٢٨٤).

حقًّا، والرباني صدقًا. ولا يكون العالِمُ عالِمًا إلا به! وقد صح عن ابن مسعود ﷺ قولُه: « الْـمُتَّقُونَ سَادَةٌ، والْفُقَهَاءُ قَادَةٌ، ومُجَالَسَتُهُمْ زِيَادَةٌ! »[1]. فالقيادة العلمية راجعة إلى البصيرة الحاصلة للعالم؛ بما جمع في قلبه من نور العلم والحكمة؛ مما يؤهله لتربية الخلق، وإرشادهم، وهو ضرب من الإرث النبوي، لما بينه القرآن الكريم من وظائف النبوة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

فمن ورث هذه الوظائف بشروطها الشرعية فهو العالم حقًّا، وفي ذلك يقول الشاطبي - رحمه اللَّـه -: « الْـمُفْتِي قَائِمٌ فِي الأُمَّةِ مَقَامَ النَّبِيِّ ﷺ! »[2]؛ ومن هنا وجب أن يتخلق بأخلاق النبوة، وأن يجاهد نفسه في اللَّـه حتى تكون أصفى وأطهر، وتكون محلًّا حقيقيًّا للاقتداء والتأسي العام. يقول أبو إسحاق في تتمة كلامه السابق: (فالمفتي مُخْبِرٌ عَنِ اللَّـه كالنَّبِيِّ، ومُوَقِّعٌ للشريعة على أفعالِ المكلَّفِين بحسب نَظَرِهِ كالنبي، ونافِذٌ أمرُه في الأمةِ بِمَنْشُورِ الْخِلَافَةِ كالنبي؛ ولذلك

(١) رواه الطبراني في الكبير، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله موثقون، كما رواه ابن النجار عن أنس ﷺ بلفظ: (العلماء) بدل (الفقهاء)، وقال العجلوني في كشف الخفاء: رجاله ثقات، كما روى نحوه الديلميُّ عن علي ﷺ.

(٢) الموافقات: (٤/ ٢٤٤).

سُمُّوا: « أولي الأَمْرِ »، وقُرِنَتْ طاعتُهم بطاعةِ اللّـه ورسولِه في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩]، والأدلةُ على هذا المعنى كثيرة. فإذا ثبتَ هذا؛ انبنى عليه معنى آخر (...)؛ وذلك أن الفتوى من المفتي تَحْصُلُ من جهةِ القَوْلِ والفِعْلِ والإِقْرارِ! »[١]، ثم يقول: « وإذا كان كذلك؛ وثبت للمفتي أنه قَائِمٌ مَقَامَ النَّبِيِّ ونَائِبٌ مَنَابَهُ؛ لَزِمَ من ذلك أنَّ أفعالَهُ مَحَلٌّ للاقتداءِ أَيْضًا! فما قُصِدَ بها البيانُ والإعلامُ فظاهِرٌ، وما لم يُقْصَدْ بِهِ ذلكَ فالحُكْمُ فيه كذلك أيضًا من وجهين؛ **أحدهما**: أنه وَارِثٌ، وقد كانَ الْـمُوَرِّثُ قُدْوَةً بقولِهِ وفِعْلِهِ مُطْلَقًا؛ فكذلك الوَارِثُ، وإلَّا لم يكنْ وَارِثًا علَى الحَقِيقَةِ! فلا بُدَّ من أنْ تَنْتَصِبَ أفْعالُهُ مُقْتَدًى بِهَا كما انْتَصَبَتْ أقوالُه! **والثاني**: أن التَّأَسِّي بالأفعالِ - بالنسبة إلى مَنْ يُعَظَّمُ في النَّاسِ - سِرٌّ مَبْثُوثٌ في طِبَاعِ البَشَرِ، لا يَقْدِرُونَ على الانْفِكَاكِ عَنْهُ بِوَجْهٍ ولاَ بِحَالٍ! »[٢].

وبما أن الأمر كذلك؛ فقد وجب على طالب العالمية أن يتحلى بخصال المروءة - بله خصال العدالة - وإلا سقطت أسوتُه عند الناس، وشَاهَتْ قدوتُه بينهم؛

(١) الموافقات: (٤/ ٢٤٥، ٢٤٦).
(٢) المرجع السابق: (٤/ ٢٤٨).

فانسحقت بركة علمه.

وخِصَالُ الْـمُرُوءَةِ: هي التحلي بمكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب في الأقوال والأفعال، وسائر العادات الحسنة، من آداب الطعام والشراب والركوب واللباس. فإنما العالم الحق هو الذي يتميز بالعلاقات الطيبة مع الناس قولًا وفعلًا وسلوكًا؛ مما يعمق جذور شخصيته الاجتماعية، ويجعله محبوبًا بين سائر طبقات المجتمع، فمن جميل قوله ﷺ في هذا المعنى العظيم ما رواه أبو هريرة ﵁، قال: قال رسول اللّـه ﷺ: « **أَطِبِ الكلامَ، وأَفْشِ السَّلامَ، وَصِلِ الأرحامَ، وصَلِّ بالليلِ والناسُ نيام؛ ثم ادْخُلِ الجنةَ بسلام!** »[١]؛ فلا قيادة اجتماعية ولا تربية لمن غَلُظَ قلبه، وفَحُشَ لسانُه، وانْبَتَّتْ صِلَاتُه، وقد صح قوله ﷺ: « **إنَّ شَرَّ الناسِ مَنْزِلَةً عند اللّـه يومَ القيامةِ مَنْ تَرَكَهُ الناسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ!** »[٢]، فكيف إذا كان من أهل العلم؟ فتلك إذن أُمُّ المصائب! وكفى بحديثه الجامع في ذلك تأديبًا وترهيبًا، وهو قوله ﷺ: « **مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخيرَ كُلَّه!** »[٣]. فماذا بقي له من علمه إذن؟ وإنما ذلك في النهاية حساب أخروي! قال عليه الصلاة والسلام:

(١) رواه ابن حبان، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة، وصححه الألباني، بصحيح الجامع رقم: (١٠١٩).
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم.

« **مَا مِنْ شيءٍ في الميزانِ أثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ!** »[١]؛ بل وَجَبَ على المؤمن أن يصبر على الأذى، بَلْهَ أن يكون من أهله! وتدبر هذا الحديث النبوي الصحيح من قوله ﷺ في إحدى وصاياه العجيبة، فعن جابر بن سليم الهجيمي، قال: « انتهيتُ إلى رسول اللّـه ﷺ وهو مُحْتَبٍ في بُرْدَةٍ له، كأني أنظرُ إلى هِدابِها على قَدَمَيْهِ، فقلتُ: يا رسولَ اللّـه أوصني! فقالَ: « **اِتَّقِ اللّـه! ولاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ المعروفِ شيئًا! ولو أنْ تُفْرِغَ من دَلْوِكَ في إناءِ المستسقي، وأنْ تَلْقَى أخاكَ ووجهُكَ إليه مُنْبَسِطٌ، وإيَّاكَ وإسْبَالَ الإزار! فإنَّ إسْبالَ الإزارِ من الـمَخيلَةِ، ولا يُحبها اللّـه! وإنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ وعَيَّرَكَ بأمْرٍ ليس هُوَ فيكَ؛ فلا تُعَيِّرْهُ بأمرٍ هو فيه! ودَعْهُ يَكُونُ وَبَالُهُ عَلَيْهِ وأجْرُهُ لَكَ! ولاَ تَسُبَّنَّ شيئًا..!** »، قال: فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَ قَوْلِ رَسُولِ اللّـه ﷺ دَابَّةً وَلا إنْسَانًا..! »[٢].

هذا، وإن حسن الخلق ليمتد إلى مجال اللباس، وآداب الطعام والشراب وسائر العادات الإنسانية العامة؛ فمن السخف أن يُرى طالبُ العلم متبخترًا في مشيته كِبْرًا، مُسْبِلًا لباسه زَهْوًا، مُرتديًا ما يَشُدُّ الأنظارَ إليه شُهْرَةً! إلى غير ذلك من

---

(١) رواه أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: (٥٧٢١).

(٢) رواه الطيالسي، وابن حبان عن جابر بن سليم الهجيمي، وصححه الألباني بصحيح الجامع رقم: (٩٨).

آفات الأخلاق التي يُبغضها اللّـه ورسولُه، وقد علمتَ ما في الصحيحين وغيرهما مما تواتر معناه من قوله ﷺ: « **من جَرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر اللّـه إليه يوم القيامة!** »[١]، وقوله: « **من لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ ألبسه اللّـه يوم القيامة ثوبًا مثله، ثم يُلْهَبُ فيه النار!** »[٢]، ومِنْ لِبَاسِ الشهرة ما يعتقده بعض الجهلة اليوم أنه (لباس السنة!)، وهو مخالف لها من حيث القصد وطريقة الاستعمال! أعني: ارتداء الألبسة المشرقية؛ كالعباءات الخليجية، والأقمصة الباكستانية والأفغانية، مما هو في حقيقته ألبسة (قومية) مرتبطة ثقافيًّا بعادات أخرى؛ فارتداء ذلك بغير بيئته يجعله قطعًا لباس شهرة! وهو عين المحظور! وعندنا في بلاد المغرب الأصيل ما يضاهيها، بل يفوقها جمالًا وهيئةً، ووفاءً للسنة النبوية الشريفة! من أنواع الجلابيب، والأقمصة، والعباءات، والسلاهيم، والكساءات، والعمامات المغربية الأصيلة، وغيرها كثير مما تناساه كثير من الناس اليوم مع الأسف.

وإنما السنة من اللباس ما سَتَرَ العورةَ، وحَسَّنَ الهيئةَ، ولم يَدُلَّ على كِبْرٍ ولَا خُيَلَاءَ، ولم يُنْسَبْ إلى إسرافٍ وتبذير، وهو مقتضى الحديث الصحيح من قوله ﷺ: « **كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سَرَفٍ! إِنَّ اللّـه يُحِبُّ أَنْ**

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود، وابن ماجه عن ابن عمر، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٦٥٢٦).

تُـرَى نِعْمَتُهُ عَلَى عَبْدِهِ! »[١]؛ ولذلك قال ابن عباس رضي اللَّـه عنهما: « كُلْ ما شئتَ، والبسْ واشربْ مَا شئتَ؛ ما أخطأَتْكَ اثنتان: سَرَفٌ أو مَخِيلَةٌ! »[٢].

كما أنه لا يحسن بطالب العالِـمِيَّة، ولا يليق به أن يتبع العادات السخيفة من أنواع (الموضات) الـمُضِلَّةِ؛ فتجده مثلًا يغير لباسه، أو حذاءه، أو نظارته، أو هاتفه الجوال - أو غير هذا وذاك من المقتنيات - بمجرد تغير (الموضة)! لا لسبب معقول من تَلَفٍ أو فقدانِ وظيفةٍ أو غير ذلك؛ وإنما لمجرد مجاراة ما جرى عليه استهلاك الناس المحكوم بما نسميه (بالثقافة الأهوائية)، مما تصنعه وسائل الإعلام التجارية، التي تربي في المسلمين سَفَهَ الاستهلاك الشهواني، والتبذير الشيطاني.

هذا، وقد نص العلماء منذ القديم على عادات سيئة اعتبروها من خوارم المروءة، منها أن يأكل الإنسان في الطرقات، سائرًا أو قاعدًا..! اللهم إلا إذا كان على سفر، غريبًا خارج بلده أو مدينته. ومن الخوارم المعاصرة أيضًا عادة مضغ العلكة سيرًا في الشوارع، وعند مخاطبة الناس والحديث إليهم، مما يُنسب إلى خفة العقل ونزق المراهقة.

(١) رواه البخاري.
(٢) المرجع السابق.

كما أنه لا يليق بالعالِمِ ولا بطالب العلم أن يركب المراكب التي اشتهر استعمالها لدى المراهقين؛ لأغراض اللعب أو لأغراض الفسق والفجور، كنوع معين من الدراجات النارية ذات هيئة مخصوصة، تملأ الشوارع صخبًا وضجيجًا يؤذي الناس! مما ارتبط اسمه ونوعه بأعمال السفه ونزق الشباب! وصار مجردُ ركوبه شبهةً على راكبه، وقد لاحظ العلماء هذا المعنى منذ القديم أيضًا؛ فقد (قيل لِشُعْبَةَ: لِمَ تَرَكْتَ حديثَ فلان؟ قال: رأيتُه يَرْكُضُ عَلَى بِرْذَوْنٍ فتركتُ حديثَه!!)[١].

وشعبةُ بن الحجاج النيسابوري (ت:١٦٠هـ) أحد جهابذة نقاد الحديث، ترك الرواية - كما رأيتَ - عن أحد الـمُحَدِّثِينَ، وأبطلَ حديثَه؛ لمجرد أنه رآه يَرْكُضُ على بِرْذَوْنٍ! كما يفعل الشباب المراهقون في ذلك العهد! والبِرْذَوْنُ: مُفْرَدُ بَرَاذِينَ، وهو عبارةٌ عن حِصَانٍ خَشِنِ الهيئة، جَافِي الخِلْقَةِ، له جَلَدٌ على السير في المسالك الوعرة؛ كالجبال والشِّعاب ونحوها - كما نصَّ عليه ابن حجر - وأكثر ما يجلب من بلاد الروم[٢]، ولم يكن من عادة العرب ركوبُه، وإنما كانوا يركبون الأفراس العربية الأصيلة! فهذا أمرٌ في الحقيقة إنما هو راجع

(١) ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي: (٨/ ٥).
(٢) فتح الباري لابن حجر: (٦/ ٦٧).

إلى طبيعة التقاليد والعادات، مما راعاه العلماء في خصال المروءة آنئذٍ، ولكل زمانٍ – كما لكل بلدٍ – عاداتُه وتقاليدُه التي يجب أن تحترم، ما دامت لا تخرم نصًّا شرعيًّا ولا تناقض حكمًا قطعيًّا. وهو أمر في غاية الأهمية؛ فتدبر..!

وأما ما اسْتُحْدِثَ – إثر الاحتكاك بالاستعمار الغربي وثقافته – من العادات السيئة؛ كحلق اللحية، وارتداء الألبسة الضيقة، الواصفة لعورة الإنسان من قُبُلٍ ودُبُرٍ، وَصْفًا يكاد يَشِفُّ عما تحته؛ فهو مما لا ينبغي لطالب العالمية إطلاقًا اللهم إلا أن يُضطر إلى شيء من ذلك اضطرارًا..! والقاعدةُ أنَّ الضرورةَ تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا ومِقْدَارِهَا؛ فلا سَرَفَ ولا اعتداء.

كل هذا وذاك ضروري لطالب العالمية؛ لِـمَا يترتب عنه من تحقيق مفهوم « القدوة الحسنة » في المجتمع، وإلا لَـمَا استطاع تحقيق شيء مما سميناه بـ (القيادة التربوية الاجتماعية)؛ لأن نفسية التأسي الاجتماعي لدى الناس هي سِرُّ هذه الصناعة، كما نص عليه الشاطبي فيما سبق من كلام، وقد تنهار في لحظة واحدة إذا انْتُقِصَ العالمُ في أمر مما ذُكِرَ أو نحوه؛ فكثير من الأمور قد لا تكون ذات بال بالنسبة لعامة الناس، أو لغير العلماء، لكنها أكيدة في حق العالِمِ شديدة؛ فقد يكون الشيء من (المباح الذي لا حرج فيه)؛ لكنه من خوارم المروءة – على مستوى العادة

الاجتماعية – كما مَرَّ في قضية البرذون مثلًا، أو كما هو الشأن اليوم في عادة الجلوس الطويل في المقاهي، واللعب بالشطرنج، والاهتمام الكلي بلعبة (كرة القدم) بصورة مبالغ فيها؛ إلى درجة الاستلاب الكلي! مما يشبه حالة الجنون! كما هي حال كثير من الشباب والكهول مع الأسف. فليس العالم في ذلك كغير العالم؛ لاختلاف المسؤوليات، وتفاوت مقادير الواجبات في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والانتصاب لتربية الخلق! وأقل ما يقال في ذلك أن وقت طلبة العلم وأهله أغلى من أن يصرف في مثل تلك الأمور.

ورحم اللّـه أبا الوليد الباجي فقد نبَّهَ وَلَدَيْهِ – وهو العَالِمُ الْـمُعَلِّمُ – على مثل هذا في وصيته أشد تنبيه، قال: « وإيَّاكُما والشَّطرَنْجَ والنَّرْدَا! فإنه شُغْلُ البَطَّالِينَ، ومحاولةُ الْمُتْرَفِينَ! يُفْسِدُ العمر، ويشغل عن الفرض! ويجب أن يكون عُمُرُكُما أعزَّ عليكما وأفضلَ عندكما من أن تقطعاه بمثل هذه السخافات التي لا تجدي، وتفسداه بهذه الحماقات التي تضر وتُرْدِي! » ذلك؛ وإنما الموفق من وفقه اللّـه.

فإذا جمع المرءُ هذه الأركانَ الثلاثةَ – مِنْ مَلَكَةٍ فِقْهِيَّةٍ، ورَبَّانيةٍ إيمانيةٍ، وقِيَادَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ اجتماعيةٍ – تَحَقَّقَ بِمَفْهُومِ الْعَالِمِيَّةِ صِفَةً حَقِيقِيَّةً، وصَدَقَ عليه وَصْفُ « العَالِـم »

المقصودُ في قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كفضلي على أدناكم! إنَّ اللّـه ﷻ وملائِكَتَهُ، وأهلَ السمواتِ والأرض، حتى النملة في جُحْرِهَا! وحتى الحوت! لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ النَّاسِ الْـخَيْرِ!»[1]؛ لأنه تحقق بالإرث النبوي العالي، وكان من أهله، وإنما ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

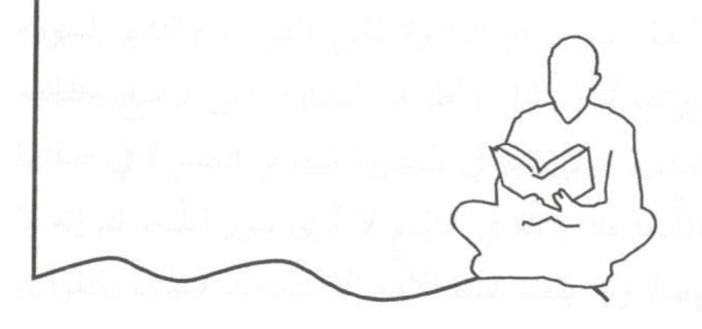
هذا؛ والناظر في النصوص الشرعية، وفي شتى أصناف علوم الدين، وكذا تاريخ العلوم الإسلامية جملة، ثم تجارب العلماءِ الْـمُجَدِّدِينَ عبر التاريخ، سواء فيما يتعلق ببرامج تكوينهم، أو مجمل تراثهم وإنتاجهم، وما أُثِرَ عنهم من أمور منهجية، بما في ذلك وصية أبي الوليد الباجي - رحمه اللّـه - يدرك أن أصول العلم المطلوب في حركة تجديد الدين إنما هي أربعة، وبيان ذلك هو كما يلي:

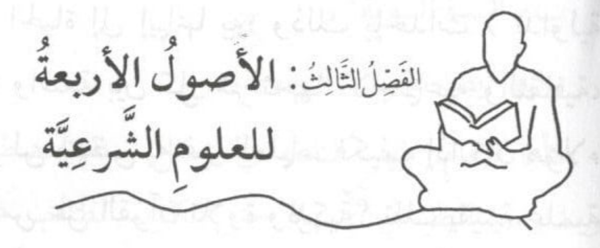
---

(١) رواه الترمذي عن أبي أمامة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٤٢١٣).

الفَصِلُ الثَّالِثُ

الأُصول الأربعةُ للعُلُوم الشَّرعيَّة





الفَصلُ الثَّالِثُ: الأصولُ الأربعةُ للعلومِ الشَّرعِيَّة

الأصل الأول: نصوص الوحي:

أ- القرآن الكريم:

وفي ذلك نظر عام وخاص:

فأما العام: فهو أنه لا بد لطالب العلم الشرعي من جمع القرآن الكريم كله، حفظًا واستظهارًا، وأقلُّ ما يطلب منه في مرحلة الطلب - إن كان ممن تأخر جمعه - الثلث. ويستحسن أن يكون المجموع في البدء شاملًا للسبع الطوال؛ بما هي جامعة لأغلب آيات الأحكام، ثم لسور المفصل بما هي جامعة لآيات التزكية والتربية وما يحتاجه المؤمن في السلوك إلى ربه، وطلب معرفته تعالى.

هذا مع دوام التلاوة لكل القرآن، والتدبر لسوره وآياته، آناء الليل وأطراف النهار؛ حتى ترسخ حقائقه العلمية والإيمانية في النفس، فتصفو البصيرة في صلتها باللّـه؛ فلا بركة في عالِـمٍ لا يُرى بنور اللّـه، ثم إنه لا نهضة ولا يقظة لهذه الأمة إلا بتجديد صلتها بالقرآن،

وبإعادة الحياة إلى إيمانها به؛ وذلك بإحداث (تداولية قرآنية) واسعة بين كل شرائحها الاجتماعية والثقافية، وهو أمر لن ينهض به غير العلماء. فكيف إذا كان هؤلاء أبعد الناس عن القرآن تلاوةً وتزكيةً؟ تلك يقينية علمية دعوية فصلناها في مواطن شتى، مما يسر اللـه تقييدَه في مثل هذا السياق؛ فلا داعي للإعادة [1].

وأما النظر الخاص: فهو الدراسة المتخصصة لآيات الأحكام، ومناهج استنباط فقهها وفوائدها العلمية؛ مع ما يقتضي ذلك من التسلح بما يلزم من العلوم اللغوية، والأصولية، وقواعد الاستدلال، كما سيأتي بيانه بعدُ - بحول اللـه -.

والانطلاق من آيات الأحكام في فقه الدين ضروري؛ لأنها تتضمن الصيغ الكلية للأحكام الشرعية، وهي صِيَغٌ مُكْتَنِزَةٌ بالمقاصد التشريعية. وإهمالها أو الاستغناء عنها بأحاديث الأحكام - كما يفعله بعضهم - مُوقِعٌ في التجزيء الفقهي، وإغفال قصد الشارع من التشريع؛ مما يؤدي إلى السطحية في الفهم، والانحراف في الاستنباط؛ فلا بد إذن من استحضار فقه القرآن أولًا؛ بدراسة آيات أحكامه.

(١) للتوسع في هذا المعنى يمكن مطالعة كتبنا التالية: « الفطرية: بعثة التجديد المقبلة »، و« البيان الدعوي »، و« بلاغ الرسالة القرآنية »، و« مجالس القرآن ».

ب- السنة النبوية:

وفيها أيضًا نظران: عام وخاص:

فأما العام: فهو التفقه في مجمل سنة المصطفى ﷺ، ومداومة النظر في كتبها؛ حتى يكون الطالب على علم بأحوال رسول اللـه ﷺ إجمالًا، بما هو مبلغ عن اللـه، ومبين لشريعته؛ ذلك أن الجهل بالسنة من أهم الأسباب المؤدية إلى التقليد، والزيغ عن جادة الصواب في أمور العبادات، والارتماء في أحضان البدع والخرافات؛ فالقدرة على استحضار النصوص الشرعية - من الكتاب والسنة - في أمور الدين هو أول الخطوات في طريق العلم والعمل، فإنما الأمة الإسلامية حضارة نص.

وأما الخاص: فهو التضلع من أحاديث الأحكام وفقهها، وما يلزم لها من قواعد وعلوم؛ ذلك أن أحاديث الأحكام هي المفتاح الحقيقي لفقه آيات الأحكام؛ فالقرآن إنما جاء في الغالب بكليات الأحكام الشرعية بينما السنة جاءت بتفاصيلها وبيان هيئاتها. ولا مناص في الفقه من الجمع بين الكليات والجزئيات؛ لأن الاقتصار على إحداهما يؤدي إلى خلل في الفهم وانحراف في الاستنباط؛ فالكلي يتضمن المقاصد التشريعية التي بها يستنير المجتهد لضبط المراد؛ فلا تشغله تدقيقاته الجزئية في المساقات التفصيلية

عن قصد الشارع الكلي. والجزئي يضمن له معرفة تفاصيل التنـزيل وكيفيات التطبيق، ولا وصول إلى حقيقة الشريعة إلا بهما؛ ومن هنا فلا مناص من استحضار نصوص الكتاب والسنة معًا، فلا يجوز أن يكون أحدهما شاغلًا لطالب العلم الشرعي عن الآخر، وإلا اضطرب ميزان الفهم بين يديه وهو لا يدري؛ فيظن أنه قد علم وما هو على الحقيقة بعالم.

الأصل الثاني: العلوم الشرعية:

والمقصود بالعلوم الشرعية: العلوم الإسلامية التي انطلقت تاريخيًّا منذ نشأتها من نصوص الشريعة: الكتاب والسنة، ودارت حول فلكها - غايةً وخدمةً - بقصد تقعيد مناهج الفهم والتطبيق لأحكامها، وهي ثلاثة أصناف: علوم القرآن والسنة، وعلم الفقه وأصوله، وعلم التوحيد والتزكية.

أما الصنف الأول: أعني « علوم القرآن والسنة »، فهو قسمان:

أ- علوم القرآن: هي العلوم التي نشأت لخدمة القرآن الكريم وتيسير فهمه على الإجمال، وقد ألف العلماء في ذلك الكثير، ويدخل في ذلك المصنفات التي سميت بعلوم القرآن؛ كالإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والبرهان في علوم القرآن للزركشي، وكتب غريب القرآن، وكتب معاني

القرآن وما في معناها، كما يدخل في ذلك عندي كل كتب التفسير كتفسير الطبري وغيره؛ بما هي كتب غايتها خدمة القرآن فهمًا وتفسيرًا، وإنما هي الوجه التطبيقي لكتب علوم القرآن ذات المنحى النظري.

فطالبُ العالِمِيَّةِ لا بد له من الإحاطة بمجمل مقاصد هذه العلوم؛ بما هي قواعد تنظم مناهج الفهم للقرآن. والهدف التعليمي المتوجه إليه فيها ليس تفاصيلها؛ فهذه سيجدها في أي مكان، وسيجدها تُعْرَضُ ضمن علوم شتى؛ لتداخل العلوم الإسلامية فيما بينها، كما هو الشأن في علم أصول الفقه مثلًا؛ بالنسبة إلى علوم القرآن، وإنما المقصود أن يضبط « منهج التقعيد » المبثوث في مصنفات هذا العلم، الذي يعرضه أهله باعتباره ميزان الفهم عن اللـه، هذا هو الأساس، وذلك هو اللب من علوم القرآن والتفسير.

ب- علوم السنة: وهي القسم الثاني من الصنف الأول، والمقصود بها هنا العلوم التي نشأت لخدمة السنة النبوية روايةً ودرايةً.

وطالبُ العَالِمِيَّةِ مضطر إلى معرفة صحيح السنة من ضعيفها، وثابتها من موضوعها؛ حتى لا يكون مثل عوام « المتفقهين » ممن لا دراية لهم بهذه الصناعة ولا اهتمام؛

يوردون من الأقوال الشاذة في الفقه والعبادة ما لا أصل له، ويستشهدون لذلك بما لم يصح عن رسول اللّـه ﷺ، أو ربما بما كُذِبَ عليه!

وإذن؛ فلا بد للطالب من التمكن من علوم النقد الحديثي، سواء في ذلك ما تعلق بنقد المتن أو نقد السند، والمعرفة بمراتب الجرح والتعديل وقواعدهما، ومراتب الرواية وما يثبت من ذلك وما يرد، وأحوال الأسانيد وعللها الخفية، مما يقدح في صحة السند، ويخرم حجيته، ثم ما يُرَقِّي الحديثَ إلى درجة أعلى وما لا يستقل بذلك؛ كارتقاء الضعيف إلى درجة الحسن، والحسن إلى درجة الصحيح.

وأقل ما يجب على طالب العَالِمِيَّةِ أن يتقنه من ذلك القدرة على ضبط مصطلحات القوم وقواعدهم؛ حتى يتمكن من الترجيح بين أحكامهم عند الاختلاف؛ ذلك أن علم الحديث قد قُتل بحثًا، ونضج حتى احترق!

وأحسب أن الوجهة العلمية - بما يناسب حاجة الأمة الملحة في هذه الأزمنة - إنما هي طلب « الفقه »، لا بمعناه التقليدي الاستظهاري، ولكن بمعناه الكلي الصناعي، أي بما هو صِنَاعَةٌ ومَلَكَةٌ يجب تحصيلها، وعلوم الحديث المنهجية إنما هي وسائل لهذه الغاية؛ فجمهور الطلبة يجب

أن يتوجه لهذه الغاية، وإنما « العَالِمُ » من يفقه عن اللّـه ورسوله.

وليس معنى هذا أنه يتعين إهمال الصناعة الحديثية، كلَّا! فلا فقه في الحقيقة إلا بها؛ إذْ هي أساس الفكر النقدي في مناهج العلوم الإسلامية، فلا بد من التمكن منها، ولا بد من استمرار هذا التخصص في الأمة، وإنما القصد هو التنبيه إلى أنه قد حصل نوع من الغلو في الاهتمام بها إلى درجة إهمال غاياتها الفقهية، ومقاصدها العملية، مما ينبني عليها من العلم والحكمة، بل صارت صناعة الحديث عند قوم نوعًا من (الموضة العلمية)، تُطلب للزينة والتصدر في المجالس ليس إلا! وصارت عند قوم آخرين ضربًا من استعراض المعلومات، وإعادة تخريج الْـمُخَرَّجَات، وتصحيح المصحَّحَات أو تضعيف المضعَّفات! مما قد حُسِمَ القولُ فيه من قبل وفات! حتى صار الانتساب إلى الحديث والمحدثين يستجلب لبعضهم - حاشا فضلاءهم - نوعًا من الكبر والخيلاء! فتجده يُصِرُّ على تحلية نفسه بألقاب الْـمُحَدِّثِين؛ على سبيل التميز والاستعلاء! ويصنع من توظيفه لمصطلح (أهل الحديث) في غير موضعه نوعًا من المذهبية الجديدة، والطائفية المقيتة، يمزق بها نسيج الأمة، ويُفَرِّقُ شملَها طَرَائِقَ قِدَدًا، هذا في وقت حاجتها فيه هي

أشد ما تكون لِلَمِّ شتاتِها، وتوحيدِ صفوفها! يصنع الأحمقُ ذلك بما يمليه عليه ذوقُه وهواه؛ وهو لا يدري أنه قد انحرف عن جادة العلم الحق، وانزاح عن غايته التعبدية، ومقاصده التربوية! وإنما تلك هي حكمتُه الفقهية.

و(أهل الفقه في القرآن والحديث)، أو (أهل الفقه في الدين) هم أعلى طبقة في الأمة - كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه اللّـه - فيما سيأتي مفصلًا - وعلى هذا الأصل وردت النصوص الكثيرة الوفيرة؛ منها الحديث الصحيح الصريح الذي يرويه أبو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: « **مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا؛ فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ؛ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ..! وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ؛ فَنَفَعَ اللَّـه بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا. وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً..! فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّـه وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّـه بِهِ؛ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّـه الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ!** »(١).

وقد علق ابن تيمية - رحمه اللّـه - على هذا الحديث؛ مبينًا أن مصطلح (أهل الحديث) إنما كان يُطلق على فقهاء

---

(١) متفق عليه.

الإسلام، ممن كان مَصْدَرُ فِقْهِهِمْ وعِلْمِهِمْ القرآنَ والحديثَ؛ في مقابل علماء الكلام والفلاسفة، ممن جعلوا محض عقولهم وأهوائهم مصدرًا مطلقًا للمعرفة! وبذلك يكون تصنيف علماء الأمصار الكبار؛ كأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، والليث بن سعد، والأوزاعي، وأضرابهم - رضي اللّـه عنهم جميعًا - ضمن مفهوم (أهل الحديث) كما استعمله علماء السلف الصالح، وإنما ضيق هذا المصطلح عند بعض المتأخرين؛ لأسباب مذهبية ضيقة، بما يكاد يقصره على رواة الحديث، وأهل صناعة الجرح والتعديل، وفي أحسن الأحوال على أهل المذهب الحنبلي خاصة.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -:

(وَمِنَ الْـمُسْتَقِرِّ في أَذْهَانِ المسلمين أنَّ وَرَثَةَ الرُّسُلِ، وخُلَفَاءَ الأنبياء؛ هم الذين قاموا بالدين عِلْمًا وعَمَلًا، ودعوةً إلى اللّـه والرَّسُولِ؛ فهؤلاء أَتْبَاعُ الرَّسُولِ حقًّا، وهُم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زَكَتْ فَقَبِلَتِ الماءَ؛ فأنبَتَتِ الكلأَ والعُشْبَ الكثير! فزَكَتْ في نفسها، وزَكَى الناسُ بها، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين، والقوة على الدعوة؛ ولذلك كانوا « وَرَثَةَ الأنبياء » (...)

فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ، والفهم، والفقه في الدين،

والبصر، والتأويل؛ فَفَجَّرَتْ من النصوص أنهارَ العلومِ، واستنبطتْ منها كنوزَها، ورُزِقَتْ فيها فَهْمًا خاصًا (...) فهذا الفَهْمُ هو بمنزلة الكلأ والعشب، الذي أنبتته الأرضُ الطيبة، وهو الذي تميزت به هذه الطبقةُ عن الطبقة الثانية، وهي التي حفظت النصوص، فكان هَمُّهَا حِفْظَهَا وضَبطَها؛ فوَرَدَهَا الناسُ وتَلَقَّوْهَا بالقَبُولِ، واستنبطوا منها، واستخرجوا كنوزَها، واتَّجرُوا فيها، وبَذَرُوهَا في أرضٍ قَابِلَةٍ للزرع والنبات، ورَوَوْهَا كُلٌّ بِحَسْبِهِ، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]، وهؤلاء الذين قال فيهم النبي: « **نَضَّرَ اللَّه امْرأً سمع مقالتي فَوَعَاهَا، ثم أدَّاها كما سمعها! فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ ولَيْسَ بِفَقِيهٍ! ورُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى من هو أفْقَهُ منه!** »[1].

وهذا عبد اللَّه بن عباس - رضي اللَّه عنهما - حَبْرُ الأُمَّةِ، وتُرْجُمَانُ القرآنِ؛ مِقْدَارُ ما سَمِعَهُ من النَّبِيِّ لا يبلغُ نَحْوَ العشرين حديثًا، الذي يقول فيه: « سمعتُ »، و« رأيتُ »، وسمع الكثيرَ من الصحابة، وبُورِكَ له في فهمه، والاستنباط منه؛ حتى مَلأَ الدنيا عِلْمًا وفِقْهًا! (...) فَعِلْمُ ابنِ عباس كالبحر، وفقهُه واستنباطُه وفهمُه في القرآن

---

(١) رواه الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، والضياء؛ عن زيد بن ثابت، كما رواه الترمذي، وابن ماجه؛ عن ابن مسعود، ورواه أحمد، وابن ماجه؛ عن أنس بن مالك، ثم رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم؛ عن جبير بن مطعم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

بالموضع الذي فاقَ به الناس! وقد سمعوا ما سمع، وحفظوا القرآن كما حفظه، ولكنَّ أَرْضَهُ كانت من أطيبِ الأراضي، وأَقْبَلِهَا للزَّرْعِ! فَبَذَرَ فيها النصوصَ فأنبتتْ مِنْ كُلِّ زَوجٍ كريم، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

- وأَيْنَ تَقَعُ فَتَاوى ابنِ عَبَّاسٍ وتفسيرُه واستنباطُه مِنْ فتاوى أبي هريرةَ وتفسيرِه؟ وأبو هريرةَ أَحْفَظُ مِنْهُ! بل هو حَافِظُ الأُمَّةِ على الإطلاق! يُؤَدِّي الحديثَ كما سمعه، وَيَدْرُسُهُ بالليل دَرْسًا! فكانتْ هِمَّتُهُ مَصْرُوفَةً إلى الحفظ، وتبليغِ ما حفظه كما سمعه، وهِمَّةُ ابنِ عباسٍ مصروفةٌ إلى التفقه والاستنباط، وتفجيرِ النصوص، وشَقِّ الأنهار منها، واستخراجِ كنوزِها.

وهكذا وَرَثَتُهُمْ من بَعْدِهِمْ، اعتمدوا في دينهم على استنباط النصوص (....).

وبِكُلِّ حَالٍ فَهُمْ أَعْلَمُ الأمة بحديث الرسول، وسيرتِه ومقاصدِه وأحوالِه.

ونحن لَا نَعْنِي (بِأَهْلِ الحَدِيثِ) الْـمُقْتَصِرِينَ على سَمَاعِهِ، أو كتابته، أو روايته؛ بل نعني بهم: كُلَّ من كان أحقَّ بحفظه، ومعرفته، وفهمه ظاهرًا أو باطنًا، واتباعه باطنًا وظاهرًا، وكذلك (أهل القرآن)، وأَدْنَى خِصْلَةٍ في هؤلاء

محبةُ القرآن والحديث، والبحثُ عنها وعن معانيها، والعملُ بما عَلِمُوهُ من مُوجِبِها.

- ففقهاءُ الحديث أَخْبَرُ بالرسولِ من فقهاء غيرهم، وصُوفِيَّتُهُمْ أَتْبَعُ للرسولِ من صُوفيةِ غيرهم، وأُمَرَاؤُهُمْ أحقُّ بالسياسة النبويةِ من غيرهم، وعَامَّتُهُمْ أحقُّ بِمُوَالَاةِ الرسولِ من غيرهم.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُعَظِّمِينَ للفلسفةِ والكلامِ، الْمُعْتَقِدِينَ لِمَضْمُونِهَا؛ هُمْ أَبْعَدُ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَدِيثِ، وأَبْعَدُ عن اتِّبَاعِهِ!)[1].

فَتَبَيَّنَ أَنَّ أعلى طائفةٍ من صُلَّاحِ المسلمين وعلمائِهم إنما هم (وُرَّاثُ النبوة)، وأنَّ غايَةَ ما يصبو إليه طالبُ العَالِمِيَّةِ - من ذلك - هو أَنْ يكون مشمولًا بالتزكية النبوية العُلْيَا، الواقعة على (مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّـه وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّـه بِهِ؛ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ!) كما نص عليه الحديث المذكور، وشرحه ابن تيمية بما يكفي ويشفي.

وعليه؛ فقد وجب توجيه عموم الطلبة - حاضرًا ومستقبلًا - إلى طلب حكمة العلم، التي هي نتاج الصناعة الفقهية، والتي من أجلها أنزل اللَّـه الكتاب في الأمة، وعلى

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: (٤/٩٣ - ٩٥).

موازينها وَرَدَتْ أحكامُ السُّنة، وإنما الموفق من وفقه اللَّـه.

الصنف الثاني: علم الفقه وأصوله:

وإنما هو علم « الفقه ». وما ذِكْرُنا لمصطلح « الأصول » مقرونًا به؛ إلا جريًا على عادة الفقهاء في التصنيف، وإلا فلا « فقه » - على الحقيقة - بغير « أصول »؛ فذكر الأول متضمن للثاني ضرورة؛ ولذلك قال الباجي فيما سبق من وصيته: (ثم يقرأ أصول الفقه؛ فيتفقه في الكتاب والسنة، ثم يقرأ كلام الفقهاء وما نقل من المسائل عن العلماء، ويَدْرَبُ في طرق النظر، وتصحيح الأدلة والحجج، فهذه الغاية القصوى والدرجة العليا!).

فقوله: (ثم يقرأ أصول الفقه؛ فيتفقه في الكتاب والسنة!) دالٌّ على أن أصول الفقه - بصورته العلمية الحقيقية - هو عين التفقه في الكتاب والسنة، أي أن الفقه بمعناه المصدري، بما هو حركة ذهنية استنباطية؛ إنما هو عملية أصولية محضة! وأما الفقه بمعناه الاسمي - أي: بما هو أحكام شرعية مستنبطة - فذلك نتيجة الفقه بمعناه الأول. والأول، هو « الفقه » على الحقيقة، وهو لا ينفك عن أصوله، إلا في مناهج الْمُدَرِّسين والمعلِّمين لقضاياه، لا في نفس الأمر.

وأما ما جرت العادة بتسميته بـ « الفقه » من كتب الفروع؛ فليس بفقه على الحقيقة، وإنما هو « نقول فقهية »،

والعالِمُ بها وحدها فقط ليس بـ « فقيه »، وإنما هو « ناقل للفقه »؛ وإنما الفقيه: « مَنْ يفقه الأحكام الشرعية عن اللّـه ورسوله »، ولا يكون كذلك حتى يكون خبيرًا بمناهج الاستنباط، قديرًا على إيرادها مواردَها العلمية، فهمًا، واستدلالًا، وتنـزيلًا، وذلك هو أصول الفقه بصورة مطبقة؛ فالفقه والأصول وجهان لعملة واحدة، وإنما أفسد العلم فصلهما؛ حتى صار مَنْ يسمون بـ « الفقهاء » ممن لا دراية لهم بالأصول؛ جامدين على مقتضى المنقول من كتب المتأخرين، والمختصرات والمنظومات الميتة لا يستطيع عنها فكاكًا! فاحتلت هذه في ذهنه منـزلةَ الوحي من حيث لا يدري! وما بعد ذلك من فسادٍ في الفهم عن اللّـه، ومَنْ قَصَدَ تجديد الدين بالعِلْمِ فأول العَمَلِ أمامه؛ إنما هو تجديد مفهوم « الفقه ».

وأما الاشتغال بعلم « الأصول » معزولًا عن « الفقه » فهو ضرب من الخوض النظري الذي يجعل صاحبه كـ « علماء الكلام » يفنون أعمارهم في بحث قضايا « الإيمان » ولا يحصلون من الإيمان - على مستوى العمل - إلا قليلًا! وكفى بذلك مصيبة في الدين والعلم!

كَالْعِيسِ فِي البَيْـدَاءِ يَقْتُلُـهَا الظَّـمَا

والماءُ فَوْقَ ظُهُـورِهَـا مَحْمُـولُ!

وإنما الفقه: القدرةُ المنهجية على استنباط الحكم الشرعي، بقواعده وضوابطه الاستدلالية؛ فهمًا وتنـزيلًا، وإلا فلا فقه، وهذا لا يتأتى إلا بمعالجة النصوص الشرعية من آيات الأحكام وأحاديثها، والنظر في النوازل الفقهية وأحوالها، ومعرفة مذاهب الفقهاء المجتهدين، ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه، وأسباب هذا وذاك، من الأدلة والفهوم، ومعرفة قواعد النظر الفقهي، مما استنبطه الفقهاء عبر التاريخ.

وإنما القصد من هذا التوجيه هو أن يَعِيَ طالبُ العَالِـميَّةِ أن التفقه هو الجمع بين الأمرين، فإذا اضطر إلى دراسة الفقه معزولًا عن أدلته ومناهج استنباطه، أو دراسة الأصول بما هي قواعد نظرية مجردة عن حقائقها الفقهية؛ نظرًا لورود كثير من المصنفات على هذه الشاكلة، حتى صارت حقيقة تراثية لا انفكاك عنها؛ فإنه لا يجوز أن يغيب عن ذهنه أن الغاية إنما هي القدرة على توظيف هذه للوصول إلى تلك، أي التمكن من تخريج الأحكام الشرعية على موارد المناهج الأصولية، وذلك هو الفقه.

فلا يجوز إذن؛ أن يشغله شيء من ذلك عن شيء، أو يتقن صنفًا منها على حساب الآخر، وإلا كان كالذي يبصر بعين واحدة: يرى؛ ولكنه لا يميز المسافات والمقادير.

هذا؛ وقد نبتت نابتةٌ في هذا العصر العصيب، من أصحاب المذهبيات الحرفانية، تُـبَدِّعُ الاشتغال بعلم أصول الفقه، وتستهين بمصنفات الفقه وكتب الفروع؛ بدعوى الاعتصام بالكتاب والسنة، وأن الغناء إنما هو فيهما! دون التمييز بين الطبيعة المصدرية والطبيعة المنهجية؛ فتجرأت على النصوص الشرعية، بغير الرجوع إلى قواعد الفقه ومناهج الاستدلال الأصولية؛ فأحدثت بذلك فِتَنًا وفوضى في مجال الدين؛ فهمًا وتنـزيلًا.

ولقد كنتُ أنظر إلى مشكلات الحياة الدعوية للحركات الإسلامية والتيارات الدعوية المختلفة - بما هي ضرب من «الفقه» للدين - وما يعتريها من اختلالات وتناقضات؛ أنها بالأساس قضية منهج، لكن الأخطر في هذا المجال أن التدافع فيه داخليًّا وخارجيًّا كان قائمًا على أسلحة الأحكام الشرعية من إيجاب وتحريم، وما يترتب على ذلك من مواقف خطيرة، قد تصل إلى حد القطيعة والتكفير وسفك الدماء.

فإذن؛ كان لا بد من التفكير في أصل القضية وأساس الإشكال!

عمَّ يصدر التحليل والتحريم إذن؟ وكيف يولد الحكمُ الشرعي، ويتحقق مناطُه؟ عند هؤلاء وأولئك؟

لقد بدا لي واضحًا بعد نوع مراقبة ومراسٍ في المجال الدعوي العام؛ أن كثيرًا ممن يتصدر للفتوى وقيادة الجماهير لا يصدر عن منهج في فقهه للنص الشرعي أصلًا! وأن منهم من يصدر عن منهج لكنه لا وعي له به البتة! وإنما هو فيه مقلد من المقلدين! وتلك هي أمُّ الطامَّات وأساس المشكلات.

وقد عُلِمَ لدى أهل العلم بهذا الشأن أن منهج التفكير الفقهي مضمن في الدرس الأصولي مما حوته مصنفات علم أصول الفقه، بَيْدَ أن دراسة هذا العلم قد هُجرت من لدن كثير ممن تعاطى للإفتاء والتوجيه الديني.

ثم إنه تبين لنا في مسيرتنا العلمية المتواضعة في صحبة هذا العلم؛ بحثًا وتدريسًا - أن كثيرًا من المصنفات والدراسات المنجزة فيه إنما هي دراسات نظرية، تختلف بين هدفين في الغالب؛ **الأول**: يرجع إلى تحقيق إشكالات أكاديمية محضة على مستوى التأصيل، **والثاني**: يرجع إلى قصد العرض المدرسي التعليمي لقضايا هذا العلم ومسائله، كما هي طبيعة أغلب المصنفات الحديثة فيه.

وقد جرت في هذه وتلك أحكام تلقاها الناس تقليدًا، كأنها من المسلَّمات والبدهيات في هذا الشأن، بَيْدَ أنها ليست كذلك على مستوى التدقيق والتحقيق لو أتيحت المراجعة

لأيِّ عالم متحقق بهذه الصناعة، فما كان كثير منها ليستساغ إذا ما حاول الناظر تنـزيلها على واقع الدرس الأصولي، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى لم يكن كثير من هذه الكتب يعرض المنهجية الأصولية في صورتها العلمية التي تكسب الطالب والباحث - فعلًا - مَلَكَةَ الصناعة الفقهية، وهؤلاء الناس في مجال التدافع الديني بالمجتمع يعيشون الفوضى.

إن فكرة الانطلاق من الكتاب والسنة تبدو عملية تلقائية عادية، يمكن لكل شخص حَفِظَ القرآنَ أو بعضَه، واستظهرَ جملة من الأحاديث النبوية الشريفة في العبادات والمعاملات - أن يخوض بحر العمل بالأحكام الشرعية بدون قواعد إجرائية، ولا ضوابط تنظم الفهم والعمل؛ بل قد تعدى ذلك مجال التدين الفردي إلى مجال الفتوى والقيادة والتوجيه! ومن هنا تَصَدَّرَ للفتوى من لا علم له أصلًا بعلوم الآلة وقواعد الفقه واللغة والأصول! حتى إن بعضهم ممن سمع مثل هذه المقالة عن ضرورة إتقان علم الأصول؛ للتحقق بمرتبة الاجتهاد والفهم عن اللّـه ورسوله؛ ابتدع مقولة أشبه ما تكون بسجع الكهان؛ للدفاع عن نقصه وجهله بهذه الصناعة، فقال: (قواعد الأصول أفسدت أحاديث الرسول!) كذا! ولعل الشافعي -

رحمه اللّـه - بهذا المنطق الفج - كان أول المفسدين.

إن فكرة الانطلاق من الكتاب والسنة - بلا منهج علمي ضابط - هي عند التحقيق لا وجود لها بصورة مجردة؛ عند أهل العلم المتحققين به أصلًا! عند السلف والخلف سواء؛ لأنها - ببساطة - تعني الفوضى في الفهم والنظر، والعبث بأحكام الكتاب والسنة لا العمل بها!

إن فكرة العمل بالكتاب والسنة إنما هي عنوان لمنهج علمي قائم البنية، راسخ أصيل! وليست فكرة هُلامية كلٌّ يكيفها على حسب هواه.

إن العلم بالكتاب والسنة صار عَلَمًا على مسمًّى، لكنه مع الأسف حدث نوع من الانفصام بين الاسم والمسمى! إلى درجة أن كثيرًا من طلبة العلم تعلق بالاسم؛ وليس له في ذهنه من حقيقة المسمى إلا التوهم والخيال! ومن هنا تم إخراج العمل بالكتاب والسنة على أشكال شتى، وصور تختلف تجلياتها من شخص إلى آخر، إلى درجة التناقض والتنافي! فتكونت بذلك مدارس، بل أحزاب يكفِّر بعضها بعضًا، ويلعن بعضها بعضًا! ولعبت بعض الجهات الدولية بذلك فكانت الدماء وكان الاقتتال! وتلك لعمري هي أحلك الفتن، وأم الفتن ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

فأين العمل بالكتاب والسنة من حيث هو منهج في

الفهم والعمل إذن؟ أوَهْمٌ هو أم حقيقة؟ ما شكله العام؟ وما خصائصه المنهجية؟ ما أصوله وما قواعده؟ ما مصطلحاته وما مفاهيمه؟ ثم ما أدواته الإجرائية فهمًا واستنباطًا وتنـزيلًا؟ وما قوانينه لدى الإعمال والإهمال؟ أوَليس ذلك هو علم أصول الفقه إذن؟

ثم ما محل المذاهب الفقهية المشهورة من هذا وذاك كله؟ هل فعلًا تجاوزها الزمن؟ أم أنها لم تزل تضرب خارج المنهجية منذ وُجِدَتْ؟ وتتناقض مع الكتاب والسنة؟ أم أن في الأمر خللًا عند الفهم لأصل الإشكال؟ فلا بد من إعادة صياغة السؤال؟

كيف فهم الصحابة - رضوان اللّـه عليهم - خطاب الكتاب والسنة؟ وكيف تلقوه وأجروه على حياتهم ما بين الفهم والعمل؟ وكيف صار بعدهم فقه التابعين؟ ثم كيف نشأت المذاهب بعد ذلك في التاريخ؟ وما مفهوم المذهب وما معناه؟ أهو - فعلًا - شيء غير الكتاب والسنة؟ أم أنه ضرب من التجلي لحقائقهما في المجال البشري؟ هل هو مجموعة من الآراء المجردة عن الاستدلال والاستناد إلى الدليل من الكتاب والسنة؟ أم أنه صورة من صور التنـزيل العملي للمنهج الكلي للكتاب والسنة؟ هل - فعلًا - ردَّ أبو حنيفة - رحمه اللّـه - خبر الآحاد الصحيح؛ استخفافًا

بسنة الرسول ﷺ، ورده مالك - رحمه اللّـه - بشيء اسمه (عمل أهل المدينة)؟ ثم هل - فعلًا - لم يكن الإمام الشاب الشافعي على علم واسع بالأحاديث وعلومها، فغلب عليه الاستشهاد بكليات لغوية وعمومات قرآنية؟ أم هل تفرد أحمد بن حنبل - رحمه اللّـه - بإمامة (أهل السنة والجماعة)؟ أم أن في الأمر نزعةً مذهبيةً، تختفي - بوعي أو بدون وعي - تحت شعار (الكتاب والسنة)؟!

إن الجواب العاجل المتعجل بهذا القول أو ذاك لن يشفي الغليل، ولن ينير السبيل، في عصر تواترت فيه الفتن والمحن، وعمت الظلمات الفكر والفهم والعمل! وصار لمفهوم الكتاب والسنة تخريجات وتأويلات، تتردد ما بين الحكم بالتبديع والتكفير، وقرار إطلاق النار على المخالف من العلماء والحكام، ومن وَالَى هذا أو ذاك؛ إلى الحكم بوجوب الخنوع والطاعة، والانتظام في ربق الصبر إلى قيام الساعة! ولو هُدِمَ بيتُك، وغُصِبَ مالُك، وانْتُهِكَ عِرْضُك! ورُفِعَتْ رايةُ الكفرِ البَوَاحِ والشَّرِّ الصُّرَاح! وما بينهما مراتبُ شتى، وكُلٌّ باسم (الكتاب والسنة)! فأين الحق من هذا الضباب كله؟!

لا بد إذن؛ من تحقيق مناط الإشكال، بالدرس والتدارس، وتبين مسارات العلم، منذ بدأت أولى لبناته

الاجتهادية، من عهد الصحابة - رضوان اللّـه عليهم - إلى أن رسخت أصول المذاهب الفقهية لدى علماء الأمصار، وما تلا ذلك من تطور سلبي أو إيجابي لقضايا المنهج الفقهي وقواعد الأصول، عسى أن ندرك أين جمهور القواعد التي بها يؤخذ الكتاب بقوة! ويعمل بحكمة السنة؟

ومن هناك يمكن أن ننظر إلى حركات التجديد الفقهي في العصر الحديث، ما موقعها من التاريخ؟ وما مقدارها من الاتباع أو الابتداع؟ وما نسبتها الحقيقية إلى مفهوم الكتاب والسنة؟

وعليه؛ فلا بد لطالب العَالِـمِيَّةِ من دراسة علم أصول الفقه دراسة متقنة جدًا، وإنما الإتقان في هذا السياق: القدرةُ على استيعاب قواعده ومناهجه التطبيقية في سياق تصوراته الكلية النظرية! ولا يكون ذلك - بعد دراسة كتبه النظرية المعروفة - إلا بدراسة كتب آيات الأحكام وأحاديثها، وذلك ما أُسميه بـ « أصول الفقه المطبَّق »، وهو شيء لن تجده - على كماله - إلا ضمن ذلك النوع من الكتب والمصنفات، مع كتب علم الخلاف العالي.

ومما يساعد على إتقان أصول الفقه - بما ذكرنا لمفهوم « الإتقان » من معنًى - دراسةُ القواعد الفقهية والأصولية،

التي بها يتمكن الطالب من تقريب النظريات الأصولية من المقتضيات الواقعية التطبيقية، كما يتمكن من نظم الجزئيات الفقهية ضمن الكليات الأصولية، وكذا تفريعها عنها، وتلك - واللّـه - درجةُ الإتقان العالي في الفقه، ولا يكون صاحب هذه المنـزلة إلا مجتهدًا بما للكلمة من معنًى! وذلك هو « الفقيه » حقًا.

ثم لا بد من دراسة ملخصات المذاهب الفقهية، وخاصة مذهب مالك بن أنس، ليس لأنه مذهب المغاربة فحسب؛ ولكن أيضًا؛ لأنه يشكل الخلفية الثقافية للتفكير الشعبي العام، في مجال الدين والتدين بالمغرب، وهذا المعنى من الدقة بمكان! بحيث لا يدركه إلا أهل الخبرة بطبيعة العمران البشري، والاجتماع الإنساني. ولا يلزم من ذلك أن يكون الناس كلهم علماء بالفقه، كلَّا! وإنما القصد أن الفقه المتداول على مر العصور في مجتمع ما - يسهم بصورة كبيرة جدًا في تكوين النفسية الاجتماعية لذلك المجتمع! ومن أخطأ فَهْمَ هذه الحقيقة أخطأ منهجَ التعامل مع الناس في تلك البيئة، ومن هنا فشل بعض الدعاة والمصلحين في تنـزيل برامجهم الدعوية، فتأمل!

ثم بعد هذا وذاك؛ لا بد من دراسة علم الخلاف العالي أو ما يُسمَّى بالفقه المقارن؛ بما هو يفتح بصيرة الطالب على

مختلف الفهوم والاستدلالات العلمية، ويوسع من أفق نظره الاجتهادي؛ فينجو من التعصب المذهبي والانغلاق القاتل، وهو معنى قول الباجي من قبلُ: (ثم يقرأ كلام الفقهاء وما نُقل من المسائل عن العلماء، ويَدْرُبُ في طرق النظر، وتصحيح الأدلة والحجج، فهذه الغاية القصوى والدرجة العليا!).

ومما يلزم لتعميق التكوين الفقهي لدى الطالب دراسةُ « علم النوازل الفقهية »؛ إذْ هو علم يُدَرِّبُ طالبَه على معرفة منهجية تكييف الحكم الشرعي؛ على حسب ظروف الزمان والمكان، ومن نقصه هذا فقدْ فَقَد الميزان الذي به يخاطب الناس بالشريعة؛ فربما صار إلى عكس مقاصدها في الخلق؛ فضَلَّ وأضلَّ!

كل هذا وما في معناه ضروري لطالب العالِـمِيَّةِ؛ قصد التمكن من المنهجية الأصولية والتحقق بالْـمَلَكَةِ الفقهية. وبهذا فقط يكون المرء « فقيهًا » أو لا يكون! وما وَصْفُ « العَالِمِيَّةِ » إذن؟ وما حقيقتُها إذا كان صاحبُها غيرَ مُتَحَلٍّ بهذه الحلية المنهجية العالية؟ فإذن تكون الصفةُ على غير موصوف، ويكون الاسم على غير مسمى! فإنما « العالمية » في الحقيقة: « الفقه ». نعم « الفقه » بمعناه الشمولي الكلي! ولا فِقْهَ بغير منهج، أي بغير قواعد وأصول.

ومن هنا كانت دراسة الفقه بأصوله ضرورةً من الضرورات المنهجية والعلمية على السواء! والذي يرقب واقع الحركات الإسلامية والدعوات الدينية في هذا العصر، وما تعانيه من أزمات في التواصل والتدابر؛ يدرك أنها في غالب أمرها تعاني « أزمة فقه »، الفقه بما هو راجع إلى منهجٍ في فهم النصوص الشرعية؛ ذلك أن اضطراب الفقه لدى أصحابه يدل على اضطراب المنهج عندهم واختلاله بالكلية! وتلك هي الفوضى الفكرية.

ولقد يسر اللّـه أن كانتْ دراسةُ علم المناهج من أولى خطواتي في مجال البحث العلمي؛ فتبين لي بذلك أن « فقه النصوص الشرعية » يساوي معنى « المنهج » في التعامل مع تلك النصوص: كتابًا وسنةً، وأنَّ من لا فقه له - بمعنى لا مَلَكَةَ فقهية له - هو بمثابة من لا منهج له في الفهم عن اللّـه ورسوله! ولو كان يحفظ كُلَّ نصوص الكتاب والسنة! وعلى هذا يتخرج قول الرسول ﷺ: « **رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ! وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ!** »[1].

---

(١) جزء حديث رُوِيَ عن عددٍ من الصحابة بأسانيد صحاح، فقد رواه الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، والضياء؛ عن زيد بن ثابت، كما رواه الترمذي، وابن ماجه؛ عن ابن مسعود، ورواه أحمد، وابن ماجه؛ عن أنس بن مالك، ثم رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم؛ عن جبير بن مطعم، كل ذلك مرفوعًا إلى النبي ﷺ: وتخريجه مفصل في صحيح الجامع الصغير للألباني.

فمن أجل هذا وذاك؛ قلنا: إنه من الضروري أن يكون علمُ الفقه بِخَلْفِيَّتِهِ الأصولية - على ما شرحناه - هو العمودَ الفقري لبرنامج طالب العالِـمية؛ إذْ بِهِ يبصر مقاصد النصوص، ومآلات الأحكام، وإلَّا كان في فقه الدين كحاطبِ ليلٍ، لا يدري عما وقعت يدُه! وأي شيء بعد ذلك من فساد؟ وإنما الموفَّق من وفقه اللَّه، واللَّه المستعان.

الصنف الثالث: علم التوحيد والتزكية:

علم التوحيد والتزكية: هو الصنف الثالث المقصود من التكوين العلمي لطالبِ العَالِمِيَّةِ، وهو في حقيقته غاية الغايات ونهاية المآلات في الدين، وإغفالُه أو إهمالُه مَهْلَكَةٌ كُبْرَى في العلم والعمل! وليس عبثًا أن شدَّد الباجي - رحمه اللَّه - في وصيته لولديه كما رأيت على المعاني الإيمانية، والحقائق الأخلاقية؛ بما يجعلها أصلًا من أجلِّ الأصول الضرورية، في تكوين العالم الرباني، الذي يرجى من ورائه الخير لنفسه ولأمته.

إلا أن من أخطر المشكلات التي واجهها الناس اليوم - على المستوى المنهجي - في هذا الأمر التربوي الخطير - مشكلة - « المفهوم »، أعني مفهوم: « التوحيد » بما هو « تزكية » للنفس، لا بما هو مقولات كلامية وحسب؛ إذْ إن « التوحيد »

و« التزكية » إنما هما وجهان لعملة واحدة، وتجليان لحقيقة واحدة. وعدم فهم ذلك أدى ببعض الناس إلى كثير من الخلل في التعامل مع مفاهيم العقيدة الإسلامية.

ذلك أن العلماء قسموا حقائق التوحيد - بناءً على استقراء نصوص الكتاب والسنة - إلى قسمين: توحيد معرفة وإثبات، وتوحيد قصد وعبادة[١].

فالأول: يؤول إلى توحيد الربوبية ومكملاته، والثاني:

---

(١) قال ابن القيم رحمه اللَّه: (التوحيد الذي دعت إليه رسل اللَّه، ونزلت به كتبه (...) نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في المطلب والقصد.
فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح، كما في أول سورة الحديد، وسورة طه (...) وغير ذلك.
النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، وقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية (...) وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولًا كليًّا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن اللَّه وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يُعبد من دونه؛ فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره؛ فهي حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن كرامة اللَّه لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد؛ فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم)، مدارج السالكين: (٣/ ٤٤٩، ٤٥٠).

يؤول إلى توحيد الألوهية ومتمماته.

ومدار توحيد الربوبية: هو التعريف باللّـه جل جلاله ربًّا للعالمين، وما ينبغي له وما لا ينبغي من أسماء وصفات، مما يتعلق بشؤون ربوبيته تعالى.

ومدار توحيد الألوهية: هو تفريده تعالى - وحده دون سواه - بالتوجه إليه بالطاعات والعبادات؛ خوفًا ورجاءً، وهذا ما ضمَّنه القرآن في مفهوم (الإخلاص) بصيغ شتى، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٢، ٣]، كما ضَمَّنَ القسمين المذكورين معًا في شعار التوحيد: (لا إله إلا اللّـه). هذا مجمل ما قرروه في كتب العقائد.

إلَّا أن الإشكال هو في المنهج الذي عُرِضت به هذه المعارف والعلوم؛ حيث غلب على الكتب التي درست التوحيد اعتماد المنهج الكلامي الجدلي. حتى ولو كانت على منهج العقيدة السلفية؛ إلا قليلًا! وذلك نظرًا للجدل التاريخي الذي أحاط بموضوع العقائد، وما تخلَّلـه من فِرَقٍ ومذهبيات، تتأرجح بين الغلو والاعتدال، وتلك قضية أخرى.

لكن نتج عن هذا كله مشكل على المستوى المنهجي، ألَا وهو غيابُ « المقاصد التربوية » من أغلب كتب العقائد، حيث فَصَّلَتْ في بيان القسمين المذكورين معًا؛ لكن بمنهج نظري جدلي، لا بمنهج تربوي، قائم على « قصد تزكية الأنفس » الذي هو غاية تعريف العباد باللّـه ربًّا وإلهًا! وأُهمل هذا المعنى العظيم؛ لتتولاه كتب أخرى وفنون أخرى، وصفت أحيانًا بكتب الرِّقاق، وأخرى بكتب الزهد، أو كتب السلوك، أو كتب التصوف.

وبغض النظر عن مشكلة التسمية وما تثيره من جدل؛ فإن غاية ما سَلِمَ من هذه المصنفات إنما هو تزكية الأنفس؛ لتتحقق من مفهوم (الإخلاص)، وذلك هو غاية التوحيد جملةً، وأساس توحيد الألوهية خاصةً. والناظر فيما صَفَا من هذه الكتب والمصنفات إنما يجدها تدور حول حقائق الإيمان بهذا المعنى.

ومن هنا لم تكن « التزكية » غير التربية على « التوحيد » بمعناه القرآني الشامل، وهو غاية وظائف الرسالة النبوية المذكورة في غير ما آية من كتاب اللّـه، كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وعليه؛ فقد وجب أن نستعيد المنهج القرآني في عرض المادة التوحيدية، أعني منهج التربية والتزكية؛ للبلوغ بالتوحيد إلى ثمرته المرجوَّة، ألا وهي: الإخلاص، ولا يكون ذلك إلا بعلم وعمل؛ فالعلم: إنما هو التلقي الصحيح والفهم السليم عن اللّـه ورسوله، بناءً على ما جاء في القرآن الكريم وما صح في السنة النبوية، من أمور العقائد، وقواعد الإيمان، ولا عمل إلا بعلم، والتنكب عن سواء هذا المنهج الأصيل أدى ببعض أبناء العمل الإسلامي المعاصر، وبعض القيادات الإسلامية - إلى الارتماء في مستنقع البدع العقدية، والانحرافات التعبدية، وإلى التيه في ظلمات الضلال والخرافات! وإنما السبب في ذلك إهمال أصل العلم في طريق معرفة اللّـه تعالى.

وليس عبثًا أن ترجم الإمام البخاري في « كتاب العلم » - من صحيحه - للمقولة الجامعة المانعة في الدين، ألا وهي: (بَابُ العِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ والعَمَلِ!). وما هلكت الأمة إلا بعد انحرافها عن هذا الأصل المتين! وصدق رسول اللّـه ﷺ فيما وصف به حال المسلمين زمن الفتن - مما سبق ذِكْرُه؛ حيث قال عليه الصلاة والسلام: « **إن اللّـه تعالى لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ من العبادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حتى إذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا؛ اتَّخَذَ الناسُ رُؤُوسًا**

جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا..! »[1]؛ ولذلك كانت أولى خطوات تجديد الدين إنما هي تجديد العلم باللّـه.

وأما العمل: فإنما هو مجاهدة النفس في اللّـه - في ضوء ذلك العلم - حتى تسلك بالعبد مدارجَ السالكين، ومنازلَ السائرين إلى رب العالمين، عبر التخلق بأخلاق الخشية والورع، والتحلي بتباريح الشوق والمحبة، والتخلي عن كل ما يخرم أدبها مع اللّـه، ويثلم إخلاصها له وحده دون سواه؛ فيتحقق لها التوحيد خُلُقًا حَيًّا ينطق به العمل؛ لا مقولاتٍ ميتةً، يُرْمَى بها في مجالس التناظر والجدل.

والعلم الكفيل بتحقيق ذلك للنفس إنما هو علم التزكية؛ إذ هو الجانب التطبيقي للتوحيد، والترجمان العملي للإخلاص، ولكن ها هنا إشكال: فنظرًا لاضطراب المفاهيم والتصورات؛ وقف الناس إزاء هذا العلم بين إفراط وتفريط. فبما هو علمٌ لابَسَهُ - من حيث التسمية - مصطلح آخر هو « التصوف »، وبما كان حول هذا المصطلح من جدل في تاريخ الأمة، امتد إلى زماننا هذا؛ لأسباب شتى، ليس هذا محل ذكرها[2]؛ فقد ضل في طريقه

---

(١) متفق عليه.

(٢) ذكرنا شيئًا من ذلك في كتابنا: جمالية الدين، وانتقدنا الغلو الحاصل من الطرفين.

فريقان: فريق أنكر كل ما فيه؛ فأنكر كثيرًا من المعلوم من الدين بالضرورة من حيث لا يدري! وفريق أخذ بكل ما فيه؛ فأخذ بكثير من الباطل والخرافات! وإنما الحق أخذ التربية بقواعد العلم ومناهجه، ولا يكون ذلك إلا بالتأصيل العلمي لكل مقولات التصوف وقواعده، وهذا أمر صنعه غير واحد من العلماء الربانيين؛ فأصاب بذلك خيرًا كثيرًا، واهتدى بكتبه وعلى يديه خلقٌ كثير؛ منهم الشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي، والإمام أبو إسحاق الشاطبي الأندلسي، والشيخ أحمد زروق المالكي المغربي، والإمام ابن القيم الحنبلي، وغيرهم كثير.

ولا خير في الغلو كيفما كان! يستوي في ذلك أهل التصوف وأعداؤه! وقد كتبنا تعليقًا على نص لابن القيم في مثل هذا السياق، من كتابنا « جمالية الدين »، نورد هنا بعضه، وذلك قولنا: (رحم اللّـه ابن القيم العالم المحقق، والناقد لمذاهبهم - أعني المتصوفة - البصير بمثالبها وبركاتها).

قال في هذا كلمات حقها أن تكتب بماء الذهب: « هذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس:

إحداهما: حُجِبَت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه

الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساؤوا الظن بهم مطلقًا! وهذا عدوان وإسراف! فلو كان كل من أخطأ، أو غلط؛ تُرِكَ جملةً، وأُهْدِرَتْ محاسنُه؛ لفسدت العلوم والصناعات والحِكَم، وتعطلت معالمها.

والطائفة الثانية: حُجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملتهم - عن رؤية شطحاتهم، ونقصها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم، وهؤلاء أيضًا معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: - وهم أهل الإنصاف - الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته! »[1].

والأساس من هذا كله فيما نحن فيه أن كثيرًا من طلبة العلوم الشرعية بما أعرضوا عن التربية الروحية تخليةً وتحليةً؛ ساءت أخلاقهم، وفسدت نياتهم، وانحرفت أعمالهم؛ فما صلحوا لا لأنفسهم ولا لغيرهم! وإنما الغاية من طلب العلم نيل رضا اللّـه جل علاه، فإذا أخطأه العبد فقد خاب وخسر! وكفى بقول اللّـه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] ضابطًا لقصد الشارع من العلم والتعلم. . وقد فسر أهل العلم (العلماء) هنا بأنهم

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٩، ٤٠).

« العلماء باللّـه وبأمره ».

فما عالِمٌ ليست له خلواتٌ بجوف الليل الآخِر يتبتل فيها إلى اللّـه ويدعوه رَغَبًا ورَهَبًا، وما عَالِمٌ ليست له أوقاتٌ مع ربه يَذْكُرُهُ فيها ويستغفره ويسبحه، وما عَالِمٌ ليست له أشواق ولا أذواق، ولا حياةَ لوجدانه بمسالك المحبة الإيمانية، ولا معرفةَ لقلبه بمدارج الخوف والرجاء - ماذا يرجى من ورائه لهذه الأمة؟ وماذا يمكن أن يفيد في تربية الخلق وفاقد الشيء لا يعطيه؟!

والعالم الذي ليس له عمق روحي لا يمكن أن يفيد الأمة بشيء - دعوةً وتربيةً - إذ الدعوة إلى اللّـه إنما هي قائمة على سقي ذَوْبِ الروح للعطشى والمحرومين، ونشر مواجيد الرحمة والمحبة للحيارى والمحزونين، فأنَّى لمن تَخَشَّبَ قلبُه أن يجد ذلك؟ بَلْهَ أن يعطيه للناس! ألا وإن ذلك إنما يتأتى ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، ذلك هو الحق، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢]، وإنما الموفق من وفقه اللّـه.

فلا بد لطالب العَالِـمِيَّةِ إذن من حمل النفس على مقتضى الأدب، في المعاملة مع اللّـه والمعاملة مع خلقه، وإلا كان من الهالكين! وعليه؛ فليتخير لنفسه مقررًا دراسيًا، تحت رعاية شيخ رباني من أهل العلم - حاشا الجهلة والدجاجلة -

مقررًا ذا طابع تربوي، يجمع بين النظر والتطبيق على المستوى المنهجي، فيسلكه بقصد تهذيب النفس، وتخليصها من شوائب الهوى؛ عسى أن يَخْلُصَ عِلْمُهُ وعَمَلُهُ للّـه الواحد القهار؛ فَيُبَارَكُ له في شأنه كله بإذن اللّـه، ويجري اللّـه على يديه خيرًا كثيرًا.

وأما الكتب التي عنيت بالتربية والتزكية فهي كتب التربية الروحية، المصنفة في علم الزهد والسلوك، مما أَلَّفَ العدولُ الثقاتُ من العلماء الربانيين المشهودُ لهم بالصلاح، الذين تخصصوا في معرفة أحوال النفس وتقلباتها، وتتبعوا مداخل الأهواء فيها، ومسارب الشيطان إليها، فكشفوها للأجيال وبينوا أخطارها، وتلك خاصية لا تكون إلا لعالم باللّـه، يرى بنور اللّـه.

وأما الخوف من المقولات الزائفة والشطحات الباطلة؛ فإن لنا قواطع القرآن والسنة، من الكليات العقدية، والقواعد الشرعية، الكفيلة بإبطال كل قول سقيم! وما ضل من ضل إلا بهوًى تمكن من نفسه! وإلا فإن الحق أبلج والباطل لجلج! وما التوفيق إلا باللّـه.

الأصل الثالث: فقه اللسان العربي:

وهذا هو مفتاح الأصول كلها، وباب العلوم جميعها، وبغير إتقانه لا يكون بدءٌ ولا يكون وصولٌ! ولنا فيه ها هنا

بعض البيان والتفصيل؛ لما له من خطورة متعدية إلى غيره، ولما دخله من الدس والإفساد في العصر الحاضر؛ بقصد تقويض صروح التراث الإسلامي، وقطع صلة المسلمين به! وجهل كثير من طلبة العلوم الشرعية، وبعض « أهل العلم » بالشريعة؛ بخطورة ما نحن فيه من وضع لساني رهيب، وما يترتب عن ذلك يوميًّا من فساد في الدين، فهمًا وتنزيلًا! فنقول:

المقصود بـ « اللسان العربي »: اللغة العربية بما هي « لسان » لا بما هي مجرد « لغة »! بناءً على قول اللّه تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥]، وقوله سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

ذلك أن اللغة إنما هي كل ما يلغو به الإنسان من الألفاظ للتواصل مع غيره، أما اللسان: فهو الْـمَلَكَةُ البيانية التي يعبر بها المتكلم عما يجده من معانٍ وأحاسيس؛ بما يجعل الْـمُتَلَقِّي يشعر بما شعر به الْـمُلْقِي! وذلك هو البيان بمعناه القرآني، الذي امتن اللّـه به على الإنسان فقال: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٢]؛ ولذلك سُمِّيَ الأداءُ اللغوي - بهذا المستوى - « لسانًا »؛ لِمَا للسان - بما هو عضو حي، وجارحة بشرية - من ارتباط بذات المتكلم أكثر من

مصطلح اللغة، فاللسان أصدق وأدق من « اللغة » في الإفصاح والبيان عن المكنون الذاتي للمتكلم.

إن اللغة هي ذلك الرمز اللفظي المشترك، بينما اللسان هو ذلك المنتوج الشخصي في اللغة؛ فاللغة قوالب ميتة لا تَحْيَا إلا عند تحولها إلى لسان، ثم إن اللغة هي ما في الكتب والمعاجم والقواعد، بينما اللسان هو ما في الحياة الإنسانية من التداول الكلامي؛ ولذلك كان اللسان أكثر ارتباطًا من اللغة بالنفس الإنسانية، وبالوجدان البشري.

وعليه؛ فإنه من الممكن أن يكون المرء ناطقًا بلغة قوم، لكن قد لا يبلغ أن ينطق بلسانهم! فإتقان اللسان أعلى درجة من مجرد إتقان اللغة، ولذلك حاول اللغويون والمعجميون العرب أن يرتقوا في تقعيدهم للغة إلى درجة تمكين المتلقي من « اللسان »، فجعلوا غايتهم من التأليف اللغوي (لسانَ العربِ)، لا لغةَ العربِ فحسب، والحقيقة أنها ذلك شعار؛ فاللسان لا تصنعه المعاجم ولا الكتب، وإنما يصنعه الاندماج النفسي في الإنتاج اللغوي اليومي لتلك اللغة، فلا تكون القواعد آنئذٍ إلا مرحلة ضرورية لبدء كسب اللسان.

ومن اقتصر على مجرد ضبط القواعد والأشكال اللغوية العامة لهذه اللغة أو تلك؛ بقي بعيدًا عن إدراك مفهوم

اللسان، ويكون شأنه كشأن العَروضي الذي يتقن موازين الشعر العربي ويضبط قوافيه؛ ولكنه لا يستطيع إنتاج قصيدة! ذلك أن صناعة العروض - رغم ضرورتها الفنية - لا تصنع الشاعر! تلك هي قصة اللغة واللسان.

وعليه؛ فإن الواجب على طالب العَالِـمِيَّةِ أن يتقن اللسانَ العربي لا اللغة العربية فقط! وإلا بقي بعيدًا عن إدراك مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية؛ ولذلك اشترط غير واحد من الأصوليين على المجتهد في الفقه أن يبلغ - أولًا - درجة الاجتهاد في اللغة، وما ذاك إلا معنى إتقان اللسان، وقد رأينا - من أهل العلم - من يتكلم في قواعد اللغة العربية ودقائق النحو؛ بما يعجب له المرء من قدرةٍ فائقة على استحضار الجزئيات، وغرائب التفصيلات، ولكنه لا يحسن التعبير ولا التلقي للسان العربي! فيأتي لذلك بالطامَّات في الفهم والتعبير كلما عبر أو تكلم، وبالغرائب كلما حاول الاستنباط للأحكام الشرعية من كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ.

وسبب المعضلة أن برامج التكوين - في مجال اللسان - كانت وما تزال فاسدة، في كثير من الجامعات الإسلامية والاختصاصات الشرعية، في العالم العربي والإسلامي، إلا قليلًا.

ذلك أن اللغة لا تؤخذ كما ذكرنا من كتب النحو والصرف، والقواعد والمعاجم، والبلاغة فقط؛ وإنما تؤخذ أساسًا من مجال التفاعل اللغوي النفسي، وليس أقعد بهذا الهدف من كتب الأدب العربي شعره ونثره!

نعم؛ قواعد العربية ضرورية، ولا كلام مع طالب العَالِـمِيَّةِ قبل إتقان الحد الأدنى من ذلك؛ بما يمكنه من إقامة تعبيره وفهمه للخطاب العربي - شكلًا ومضمونًا - على المستوى النحوي والصرفي والمعجمي والبلاغي جميعًا، هذه بدهيات!

ولكن لا بد له - بعد ذلك، وأثناء ذلك - من الاشتغال بتلقي اللسان العربي من كتب الأدب؛ إذ إن القواعد تعلمك اللغة، بينما الأدب يعلمك اللسان. وحاجة «العالِـم المجتهد» إنما هي إلى اللسان؛ إذ لا اجتهاد في الشريعة بغير لسان، كيف وهذا القرآن قد بلغ منتهى الغايات في التعبير والبيان، وهذا النبي - عليه الصلاة والسلام - قد أوتي جوامع الكَلِمِ، وكان أفصح العرب وإمامهم في إنتاج اللسان؟!

وليس عبثًا أن تواتر حض الصحابة للتابعين على تعلم أشعار العرب وحكمتهم، مما أُثِرَ عن عمر بن الخطاب وابن عباس وغيرهما، من التوجيهات والوصايا

في هذا الشأن.

ولقد تطور الأدب العربي بعد ذلك؛ بسبب تأثره بأساليب القرآن الكريم، وبسبب تطور الحاجات العلمية والاجتماعية للمجتمع العربي الإسلامي؛ فازدهر النثر إلى جانب الشعر الذي كان فنَّ العربية الأول، فصار للأدبيات النثرية عند العرب مكانة كبرى، وتميز فن التعبير لديهم بما صار ينافس الشعر والشعراء، وطُلِبَ الكَتَبَةُ للدواوين، وللتصنيف في مختلف الفنون والعلوم، فظهر كُتَّابُ العصرِ العباسي الكبار؛ كعبد اللّـه بن المقفع (١٤٥هـ)، وأبي عثمان الجاحظ (٢٥٠هـ)، وابن قتيبة (٢٧٠هـ)، ثم مَنْ جاء بعدهم كابن العميد (٣٦٠هـ)، وغيرهم كثير.

ومن هنا صارت المصادر النثرية المتميزة في تاريخ الأدب العربي - من أهم المراجع المدرسية؛ لتكوين الأجيال في إتقان (اللسان) العربي، بما أصلناه له من مفهوم؛ وذلك لِـمَا للأدب من خاصية نفسية عميقة في مجال التواصل الفني، والتخاطب الوجداني، والتمكن من تذوق لغة العرب وإدراك مقاصدها؛ إلى درجة الاندماج المفهومي - على المستوى اللغوي - مع سائر الإنتاج اللغوي العربي الأصيل، بما لا تتيحه لك القواعد النحوية والصرفية والبلاغية؛ فذلك الاندماج المفهومي هو الذي يعطيك

خاصية الفهم التلقائي (الأُمِّي) للعربية، تمامًا كما كان الإنسان العربي - زمن الرسالة - يفهم الكلام، وذلك ما سميناه بمرتبة إتقان اللسان.

وإنما ذلك وحده أَقْعَدُ بفهم لغة الوحي قرآنًا وسنةً، وتذوق مساقاتها التعبيرية، ومقاصدها الدلالية، الأصلية منها والتبعية، على المستويين: اللغوي والاستعمالي، وإنما بَرَّزَ الإمامُ الشافعي - رحمه اللّـه - فيما وضع من قواعدَ أصوليةٍ في كتاب الرسالة؛ بسبب ما حصَّل - قبل ذلك - من اندماج مفهومي رفيع المستوى - كما هو معلوم من مسيرته العلمية - مع اللسان العربي! وكان اللحن آنئذٍ قد عمَّت بلواه سائرَ أنواع المخاطبات اللغوية؛ بسبب الهجنة الثقافية في جيل الموالي، والتلاقح اللغوي بين الشعوب العربية وغيرها، ممن دخل في الإسلام من العجم في وقت مبكر، كالفرس والقبط وغيرهما؛ فكان أن فطن أهل الصناعة اللغوية إلى خطر اللحن، على المستويين: الشكلي والاستعمالي؛ فبادروا إلى تأصيل العربية وأساليبها البيانية والتعبيرية، كلٌّ في مجال اختصاصه.

ذلك كان في زمانهم؛ والعهد قريب جدًّا بالأصل المعهود زمن الرسالة؛ من مقاصد الخطاب اللساني والتعبير البياني! فما بالك بزماننا هذا؟ وقد تردَّتِ العربيةُ المحدثة في شتى

ضروب المسخ التعبيري والتحريف المفهومي؛ مما أفقد الألفاظ أصالتها، والأساليب صفاءها، حتى غدا كثير من الكتّاب الْـمُحْدَثِين والمتأدبين المعاصرين يكتبون بعربية غير العربية؛ ففسدت لغة التخاطب بما جعل دلالات الألفاظ تنحرف عن مقاصدها الاستعمالية، وعمَّ (اللحن المفهومي) كلَّ الكتب المدرسية والبرامج التعليمية، ثم عمَّ كلَّ وسائل الإعلام وسائر ضروب الإنتاج الفني المعاصر؛ من حوارات وإعلانات، وبرامج تلفزيونية وأفلام ومسلسلات؛ فأدى ذلك كله إلى إفساد اللسان العربي، على المستوى المفهومي.

و« اللحن المفهومي » هو أخطر أنواع اللحن فيما نحن فيه؛ لأن المتكلم يظن أنه مندمج في صميم التعبير العربي! ولكن المشكلة أنه يستعمل الكلمة أو التركيب اللغوي في غير مساقه العربي الفصيح؛ بسبب تأثره بالمفاهيم المترجمة من اللغات العالمية الأخرى، التي غلبت على الأمة اليوم، وسكنت لغتها العامية، ووجدانها الذوقي الاستهلاكي! فيُكْسِبُ ذلك كلُّه الألفاظَ والتراكيبَ العربية معنًى محدثًا، لا أصلَ له في لغة العرب! ويُتوهم بعد ذلك أنه عربي فصيح؛ لسلامته الشكلية نحوًا وصرفًا؛ مما يؤدي إلى إسقاطه - في الفهم والاستنباط - على النص العربي القديم، قرآنًا وسنةً وتراثًا علميًّا؛ فيأتي الدارس بعد ذلك

بالطامّات في الفهم أو في الفقه والاستنباط! وتلك حال غير واحد من المتصدرين للكتابة والتوجيه في المجال الديني والدعوي اليوم.

وليس عبثًا أن شَكَّلَ الاستعمارُ الثقافي الحديث فِرَقًا من المثقفين العرب في المجالين: الأدبي واللغوي، يفسدون اللسان العربي بوعي خطير، على المستويين: الشكلي والمفهومي؛ بما ينتجون من (إبداع) هجين، ودرس لساني أثيم، يحرفون فيه الكلم عن مواضعه، ويغيرون خلق اللّه في الطبيعة اللغوية والمفاهيم اللسانية؛ بما يضيع حقائق الحياة والأشياء، مما أنتج لغة (عربية) أخرى - في مجال التأليف والتعبير - لا تكاد تقارب العربية الأصيلة إلا في الاسم!

ولقد تأثر بعض المفكرين الإسلاميين - ضرورةً - بهذا الوضع اللغوي الفاسد! وكذلك بعض أهل « العلم » بالشريعة، ممن لم تتح لهم فرصة إتقان اللسان، ولو كانوا بارعين في قواعد النحو والصرف، وحفظ النصوص الشرعية، كما بيّنا، فكانوا هم - أيضًا - ضحية قرن كامل من التزوير اللغوي والتحريف اللساني! حتى غَدَتِ المفاهيم القرآنية والنبوية بينهم - وهم أهل اختصاص مع الأسف - غريبةً دَلَالِيًّا؛ غربةَ الدين نفسه بين الناس، في

زمان الفتنة والضلال! فكيف بفهومٍ وفتاوى تصدر عنهم إلى الناس؟ تلك إذن من أعظم الفتن! واللّـه المستعان!

ثم إنه لا بد - بعد إقامة اللسان - من إتقان فن الخَطَابَةِ، بما هي صناعةٌ فنيةٌ ولغوية، وذلك تمام البيان الذي امتن اللّـه به على الإنسان، ولقد تقرر بالتجارب والمشاهدات في أحوال الناس، من أهل المذاهب والدعوات، قديمًا وحديثًا - الحقيقةُ الراسخة التالية، وهي: أنه لا دعوة لمن لا بيان له! نعم! لا دعوة لمن لا بيان له، فتدبر!

والخطابة - بما هي فن من أهم فنون الإقناع، ومخاطبة الجماهير - صناعةٌ تؤخذ بالتعلم النظري والتطبيقي معًا، لا غنى لأحدهما عن الآخر، أي لا بد من دراسة أدب الخطابة في مصادره النظرية، عند العرب والعجم، ثم لا بد من الدخول في ورشات تكوينية، تحت إشراف خبير أو عدة خبراء في هذا المجال، ثم الدخول العملي في ممارسة هذه الصناعة في الحياة، مع التتبع لكبار الخطباء في العالم، والحرص على حضور خطبهم ما أمكن، أو مشاهدتها على الأشرطة المرئية، وملاحظة كيفية أدائهم، شكلًا ومضمونًا. وإن في ذلك لمدرسةً مهمةً قلما يُنتبه إليها، لو دخلها المتعلم لجاء بحكم نادرة، بل عزيزة! لا تدرك بنظرية ولا بكتاب!

وهو أمر شاهدناه بالممارسة والتجربة.

ومن هنا دعوتنا لطالب العَالِمِيَّة الحق إلى ضرورة إتقان اللسان العربي! إتقانه كما هو في مصادره الأصلية، والاحتكاك بكتب الأدب القديم؛ بما هي أقرب إلى عربية القرآن ولسان الوحي، وتلك هي أولى مراحل التكوين في هذا البرنامج، وأولى خطوات تجديد الدين في الآن نفسه، واللّـه الموفق للخير والمعين عليه.

الأصل الرابع: فقه الواقع:

وهذا الأصل زَلَّ فيه طرفان، كلاهما غالٍ في حُكمه، مجافٍ للحق في نفسه.

فأما الطرف الأول: فقومٌ جعلوه أصل كل شيء، وبذلك حكَّموه في كل شيء، وعلى كل شيء! فرَدُّوا به بعض أحكام الدين، وأبطلوا به بعض نصوصه الصريحة الصحيحة! فتراهم كلما واجهوا معضلة مما لم يوافق هواهم، أو لم تستوعبه عقولهم القاصرة، من مقتضيات النصوص الشرعية؛ قالوا: « هذا مخالفٌ لفقه الواقع »، أو استدركوا على الشرع الحكيم بمثل قولهم: « ولكن فقه الواقع يقتضي كذا وكذا... »؛ فيبطلون العمل بالنص الصريح، بلا قواعد ولا ضوابط، تحت تأثير مصلحة وهمية، أو مفسدة خيالية، من (فقه الواقع) زعموا..! وما ذاك في الحقيقة بفقهٍ

للواقع، ولكنه ضرب من الاعتزال الجديد، ليس إلا.

وأما الطرف الثاني: فقومٌ جاء حُكْمُهُم مُجَرَّدَ رَدِّ فِعْلٍ نفسيٍّ، في مقابلةِ غُلُوِّ الطرف الأول؛ فصدروا عن حكم متسرع، بلا دراسة ولا روية؛ وقضوا بفساد تحكيم الواقع في فقه الدين، بل جعلوا مفهوم « فقه الدين » مناقضًا لمفهوم « فقه الواقع »، وقد قرأتُ لبعض أهل العلم الفضلاء - من المعاصرين - كلامًا مفاده أن مسمى « فقه الواقع » أمرٌ طارئ في الأمة، وأنه من بدع العلم، وإنما قال الرسول ﷺ: « **مَنْ يُرِدِ اللَّـه بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ!** »(١)، لا في الواقع! كذا..!

والحقيقة أن مفهوم « فقه الواقع » قديمٌ في سَلَفِ الأمةِ، أصيلٌ أَثِيلٌ! وإنما التسمية هي الجديدة! وعليه كان المعول في تحقيق مناط الأحكام الشرعية في النوازل والفتاوى الفقهية؛ فهو جزء لا يتجزأ من « فقه الدين »، وهو شرط صحة في الإفتاء؛ إذْ لا تصح الفتوى إلا باعتبار معطياته! ولكنْ بقواعدَ وشروطٍ، حددها علماء أصول الفقه، لا بالهوى السارب، أو التحكيم المطلق للعقل المجرد، والفِكْرِ المتحللِ من توجيه الشرع، ومن تسديد الدين وهداه.

وإنما « فقه الواقع » عِلْمٌ أشبه ما يكون بـ « شروط

(١) متفق عليه.

الصحة » في النظر الفقهي، أو بقواعد « ما لا يتم الواجب إلا به » في الاستنباط والاجتهاد، وبِمُحَكَّمَاتِ العرف والعادة في فقه الشريعة تحقيقًا وتنـزيلًا، إلى غير ذلك مما سطره الفقهاء وقَعَّدُوه، وإنما التسمية الحادثة، والتلاعب العشوائي بالمصطلحات والمفاهيم، مِنْ قِبَلِ أهلِ الأهواء، ومَنْ لا علم له مع الأسف - حاشا فضلاء الدعاة من أهل العلم الأتقياء - هو الذي أدى إلى رد الفعل هذا؛ بإنكار مسمَّى « فقه الواقع »، وما كان ينبغي لـ « حَقٍّ أريد به باطلٌ » أن يُنْكَرَ من حيث هو حَقٌّ في ذاته.

وإنما الأمر يحتاج إلى شيء من التأصيل والتفصيل، ونورد بيان ذلك كما يلي:

وهو أن ما اصطلح عليه الدعاة والعلماء المعاصرون « بـفقه الواقع »؛ أو ما سميناه بـ (أصول الفقه السياسي) في سياق آخر(١)؛ فهو ما عرفه الفقهاء قديمًا في سياق ما يلزم المجتهد من: (التفقه في حال الزمان وأهله)، أو (معرفة أحوال الناس وأعرافهم)؛ لأن على ذلك كله تنبني الثمرة المنهجية للاجتهاد، ألا وهي (تحقيق مناط الأحكام الشرعية).

فَلَكَ إذن؛ أن تسمي فقه الواقع بـ (فقه تحقيق المناط)،

(١) في كتابنا: الفطرية بعثة التجديد المقبلة.

وهو من الاجتهاد الذي لا ينقطع إلى يوم القيامة، على حد تعبير أبي إسحاق الشاطبي رحمه اللّـه[1]؛ لأنه لازمٌ لكل عبدٍ للّـه - على الأقل - فيما يتعلق بشخصه هو من أحكام شرعية، ولا خلاف فيه بين الأمة، قال أبو إسحاق: (الاجتهاد المتعلق بتحقيق المناط: وهو الذى لا خلاف بين الأمة في قبوله، ومعناه: أن يثبت الحكم بمدركه الشرعي؛ لكن يبقى النظر في تعيين محله)[2].

والجهل به مؤدٍّ إلى الطامَّات في الفهم والعمل، على كل المستويات: الدينية والدعوية سواء؛ وذلك لما يطبع الجاهلَ به - إذا تصدى للإفتاء، أو للإرشاد الديني والدعوي - من ارتجال وفوضى منهجية، في الحكم على الحقائق والأشياء؛ بسبب عدم ضبط الأمور بموازينها، وعدم معرفة مقاديرها؛ فينشأ عن ذلك فساد كبير، يتعدى إلى غيره من الأتباع والرِّعاع، ممن يعتقدون فيه الكمال والجلال! وذلك من أعظم الفتن! واللّـه المستعان!

ولشيخ المقاصد أبي إسحاق الشاطبي - رحمه اللّـه - كلماتٌ في هذا، حقُّها أن تُكتب بماء الذهب؛ وذلك أنه ذكر أن من خواص العالم الرباني الحكيم: (أن لا يَذْكُرَ للمبتدئ

(١) الموافقات: (٣/ ٨٩).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٨٩، ٩٠).

من العلم ما هو حظ المنتهي، بل يربي بصغار العلم قبل كباره، وقد فرض العلماء مسائل، مما لا يجوز الفتيا بها، وإن كانت صحيحة فى نظر الفقه! (...) وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت فى ميزانها؛ فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة؛ فاعرضها فى ذهنك على العقول، فإن قبلتها فَلَكَ أن تتكلم فيها، إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ؛ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية!)[1].

والمقصود بـ (القَبول العقلي) ها هنا: ما تلخص للعقل من موازين شرعية؛ بعد النظر في مقتضيات النص من العلل والحِكَم التي شُرع من أجلها، ومقتضيات الواقع من الشروط والموانع، ثم ينظر إلى المآل المتوقع من المقاصد التي شرع الحكم من أجلها؛ بناءً على تلك المعادلة الاجتهادية بشروطها، وذلك بمعرفة فقه تنزيلها وتحقيق مناطها: إلى أي حد يكون خادمًا لتلك المقاصد وجالبًا لمصالحها؟ أم أنه مؤدٍّ إلى عكسها ونقيضها؟ فهذا العقل إنما هو (عقل شرعي) موجَّه بمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية، لا بأهواء الذوق والتوهم.

(١) الموافقات: (٤/ ١٩٠، ١٩١).

ألا رحمة اللّـه عليك أبا إسحاق! أي تأصيل هذا وأي تحقيق؟! فذلك هو عين (فقه الواقع)، الذي هو ميزان العلم، ومعيار حكمته، ولقد تجاوزت كلماتُه – رحمه اللّـه – بأصالتها العلمية – كما وردت بمجموعها في كتاب الموافقات – ما تحدث عنه المعاصرون في هذا الشأن وما دوَّنوه، فتأمل!

هذا؛ وأول العلوم الضرورية لفقه الواقع « مادة السيرة النبوية »؛ بما هي أساس علم الدعوة إلى اللّـه؛ إذ منها يمكن استنباط فقه المراحل الدعوية، وقواعد ترتيب الأولويات الإصلاحية، لمخاطبة الناس على قدر ما يناسب الزمانَ وأهلَه، وحق السيرة أن تصنف ضمن العلوم الشرعية، وهي كذلك بالفعل، لكنَّا جعلناها هنا؛ لما لها من أهمية في التأصيل لفقه الواقع، وتقعيد قواعد فهمه، وموازين تقويمه، وتلك الخاصية هي – قبل ذلك – لنصوص الكتاب والسنة عمومًا، فهذا حاضرٌ في الحسبان؛ إذ قواعد فقه الواقع من السنن الاجتماعية والنفسية والتاريخية إنما من هنالك تؤخذ، وهذا أمر بَدَهِيٌّ، فإنما حديثنا ها هنا مع أهل العلم بالكتاب والسنة، وكل نظر في الواقع إنما يجب أن يقع من خلالهما.

وأما تمييزنا لعلم السيرة في هذا السياق؛ فلكونه يمثل

الصورة النموذجية لتطبيق تلك القواعد القرآنية، والموازين السننية؛ في الواقع البشري المتحرك، والدخول بها في معترك التدافع الإنساني الحي؛ ولذلك كان لزامًا على العالِم الحق أن يكون خبيرًا بفقه السيرة النبوية، دارسًا لمراحلها، مدركًا لأسرار تطوراتها، وعلل قراراتها وخطواتها؛ بما يفيده في النظر إلى عصره وزمانه، وترتيب أولويات خطابه، وما يجب أن يبدأ به في ذلك من الأقوال والأعمال، وما يمكن أن يرجئه، ثم ما يجعله أساس دعوته، ومن ثوابتها المصيرية، وما يكفي أن يستتبعه ضمن اللواحق والتوابع، وذلك هو معنى الحكمة، التي هي زبدة العلم، وجوهر معدنه.

ثم لا بد أيضًا – بناءً على العلة نفسها – من دراسة بعض العلوم الوضعية المعاصرة، التي لا غنى عنها في فهم الواقع وعلى رأسها القانون! وإنما يكفي في ذلك دراسة (مدخل عام) مختصر؛ لمعرفة مقاصده المعرفية، وأقسامه الكلية، ومصطلحاته التعبيرية، سواء في ذلك قِسْماهُ: العام والخاص، هذا على الإجمال، وأما على التفصيل فلا بد من الاهتمام بالقانون الدستوري على الخصوص، ودراسة مفصلة « لقانون الحريات العامة » بصفة أخص؛ ذلك أن القانون صار يشكل اليوم جزءًا من المكونات المعرفية للثقافة السياسية المعاصرة، التي لا بد منها للفقيه في سياق

اجتهاده لتحقيق مناطات الأحكام الشرعية، وضبط مراحل الدعوة إلى التزامها ومعرفة مراتب أولوياتها.

ثم لا بد من دراسة « مدخل إلى علم الاقتصاد »، وخاصة « الاقتصاد السياسي » منه، ونظرياته المشهورة، في مختلف اتجاهاته ومدارسه؛ ذلك أن هذا الاختصاص يشكل هو أيضا جزءًا جوهريًّا من قوانين التدافع السياسي المعاصر، ولا فهم لكثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية إلا بفهم بعض قضاياه! ومن هنا صارت الثقافة الاقتصادية ضرورية للفقيه المعاصر؛ إذا كان يريد بحق فهم عصره، وامتلاك القدرة على التعامل معه؛ تأثيرًا وتوجيهًا.

وأخيرًا لا بد - في سياق فقه الواقع - من دراسة مجملة للتاريخ العام، ثم التاريخ الإسلامي على العموم، مع التركيز على تاريخ المغرب؛ ذلك أن التاريخ لا يفيد في فهم السنن التاريخية المتحكمة في طبيعة الصيرورة الاجتماعية فحسب؛ ولكنه يفيد أيضًا في فهم كثير من الظواهر العمرانية المعاصرة، على المستوى السياسي والاجتماعي، صحيةً كانت أو مرضية! وكذا في ترجيح الاحتمالات المتوقعة في المستقبل، وهذا الأمر مهم جدًّا في ضبط (فقه المآلات) كما بينه الأصوليون[1]!

---

(١) للتوسع في هذا المعنى يمكن النظر في كتابنا: « المصطلح الأصولي عند=

ثم إن على طالب العَالِـمِيَّةِ أن يكون دائم المطالعة للفكر الإنساني جملة، متتبعًا للمذهبيات الفكرية والفلسفية واللسانية والسياسية، قديمها وحديثها، عالمًا بما استُحْدِثَ منها؛ لِمَ استحدث وكيف؟ وما تطور منها؛ إلى ما تطور؟ وكيف؟ متابعًا لحوادث العالم عامة، وما يخص بلده منها بصفة خاصة، مجتهدًا لربط كل جزئية بسياقها الكلي، على المستوى المحلي والعالمي، وإنَّ عدم الانتباه إلى ذلك قد أدى بكثير من الدعاة إلى المهالك في إصدار الأحكام على الوقائع والأشخاص؛ فرجع ذلك بالفساد على الشأن الديني والدعوي، ولقد وجدنا من أهل الفضل من لا يزال - بسبب انقطاعه الكلي عن الواقع وعلومه - ينكر كروية الأرض! في عصر الفيزياء النووية والثورة الإلكترونية.

هذا؛ وأما ما في وصية أبي الوليد الباجّي من تَحْذِيرِ لِوَلَدَيْهِ؛ مِنْ دراسةِ الفلسفةِ والمنطق؛ فهو راجع إلى منع البدء بهاتين الصناعتين، وخوف السبق إليهما في تلقين الأطفال وتعليمهم؛ لا إلى مبدأ تعلمهما، كما هو واضح من نصه بمحله من الوصية؛ لِمَا بَيَّنَهُ من تعليل، قال - رحمه اللّه -: (وإياكما وقراءةَ شيءٍ من المنطق وكلام الفلاسفة! فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد، والبعد عن الشريعة والإبعاد!

=الشاطبي »: (مصطلح المآل).

وأُحَذِّرُكُما من قراءتها؛ ما لم تقرءا من كلام العلماء؛ ما تقويان به على فهم فساده، وضعف شبهه، وقلة تحقيقه؛ مخافةَ أن يسبق إلى قلب أحدكما ما لا يكون عنده من العلم؛ ما يَقْوَى به على رده؛ ولذلك أنكر جماعةٌ من العلماء المتقدمين والمتأخرين قراءةَ كلامهم؛ لمن لم يكن من أهل المنـزلة والمعرفة به؛ خوفًا عليهم مما خوفتكما منه! **ولو كنت أعلم أنكما تبلغان منـزلة الميز والمعرفة، والقوة على النظر والمقدرة؛ لحضضتكما على قراءته وأمرتكما بمطالعته؛ لتتحققا ضعفه، وضعف المعتقد له، وركاكة المغتر به!** وأنه من أقبح المخاريق والتمويهات، ووجوه الحيل والخزعبلات، التي يغتر بها من لا يعرفها، ويستعظمها من لا يميزها!).

قلت: وهذا كلام صحيح مليح لمن فهمه في سياقه؛ فكل الشعوب تعلم أبناءها عقائدها ولغتها أولًا؛ حتى تُـرَسِّخَ مذهبيتَها الأصليةَ وانتماءَها الحضاري؛ وإلا فعلى شخصيتها السلامُ! ثم بعد ذلك – وبعد ذلك فقط – يمكن الدخول في برنامج قراءة الآخر، فالمسألة عند البَاجِّي إنما هي مسألة أولويات وبرمجة؛ لا مسألة تحريم لعلم من العلوم! كيف وهو نفسه – رحمه اللّـه – كان بارعًا في فن المناظرة والجدل، وقد ألف في ذلك ودرَّس ومارس! حتى اشتهرت مناظراته مع ابن حزم الظاهري الذي كان هو أيضًا متسلحًا بالمنطق

وعلم الجدل! وبذلك كان الباجِّي – رحمه اللّـه – حجة المذهب المالكي في زمانه؛ حتى قيل: « لولا الباجي لقضى ابن حزم على المالكية! ».

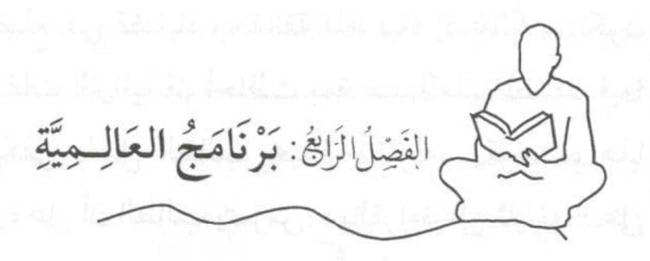
وأخيرًا، لا بد لطالب العالِمِية – في هذا العصر – من أن يلم بإحدى اللغات الأجنبية، وخاصة اللغة الإنجليزية – أو الفرنسية على الأقل – إلمامًا متوسطًا، يكفيه لتحصيل القدرة على معرفة الواقع بمكوناته الثقافية والسياسية والاقتصادية، في مصادرها الأصلية؛ قصد التواصل معه بصورة مباشرة، محاورةً وأخذًا وعطاءً ونقدًا؛ ذلك أن معرفة الأشياء بالوسائط غالبًا ما يؤدي إلى الجهل بها؛ تصورًا وحُكْمًا ومعاملة، وهذا ضد القواعد الدعوية، والمقاصد الشرعية، وإنما يكفيه من اللغة الأجنبية أن يكون قارئًا بها، وليس بالضرورة كاتبًا، فأمامه – بصفته طالب علمٍ شرعي – أولويات آكد وأشد، والعمر واحد لا يتعدد.

هذا؛ وإنه لا يتأتى ذلك كله لأحد – بعد توفيق اللّـه – إلا إذا كان قويَّ العزيمة، حيَّ القلب، منظمَ التصرف في كل أمره، حسن التدبير لوقته وحياته، حكيم التنظيم لعلاقاته الأسرية والاجتماعية، وإنما الموفق من وفقه اللّـه.

***

الفَصْلُ الرَّابِعُ

بَرْنَامَجُ العَالَمِيَّةِ



الفَصلُ الرَّابعُ: بَرْنَامَجُ العَالِـمِيَّةِ

تمهيد: في منهج الدراسة:

برنامج العَالِـمِيَّةِ - كما نقترحه - قائم أساسًا على « **منهج التَّخَرُّجِ على الكُتُبِ** »، وهو المنهج الذي تخرجت عليه أجيال العلماء عبر التاريخ من هذه الأمة، فالدارس لأحوال الطبقات والرجال من أهل العلم؛ يعرف ما يسمى عندهم: ببرنامج « الشيوخ » أو « الأثبات » أو « الفهارس »، فتجد من ذلك عناوين لمصنفات، مثل قولهم: « برنامج ما رواه فلان عن شيوخه »، أو « برنامج فلان »، أو « فهرست فلان »؛ كـ « فهرست ابن عتاب » مثلًا، و « فهرست ابن خير الإشبيلي » وأضرابهما، وإنما هو عبارة عن سرد للشيوخ الذين تلقى عنهم العالم، وما درس عليهم من كتب ومصنفات في هذا الفن أو ذاك.

وبرنامج التخرج على الكتب العلمية - تحت رعاية الأساتذة والشيوخ - هو المنهج الكفيل بتكوين طالب العَالِـمِيَّةِ التكوينَ العلميَّ الحق؛ لِمَا له من فوائد منهجية في تمتين المستوى العلمي، وترسيخ القدم في الفن المدروس،

والتضلع من قضاياه وحقائقه المعرفية؛ إذ غالبًا ما تكون المصنفات التراثية قد أحاطت بمقاصد العلم المصنف فيه؛ بما يكفي لجعل الطالب محيطًا بأصوله، وقواعده، هذا علاوة على أن الطالب يتمرس - بالقراءة على شيخه - على لغة النص التراثي القديم، ويحتكُّ بأساليب العلماء الكبار مباشرة، ويخوض عباب العلوم الزاخرة بنفسه مستأنسًا بشيخه، وبركة توجيهه، حتى يتم له القصد بإتمام الكتاب، فينتقل إلى غيره في ذلك الفن نفسه، إن لم يكن قد أحاط بكل مقاصده، أو إلى مصنف في علم غيره، من العلوم التي عليه إتقانها في طريق التحقق من صفة العَالِمِيَّة.

ويتم ذلك بقراءة الكتاب على الأستاذ، بمجالس الدرس المرتَّبة، فصلًا فصلًا، ومطلبًا مطلبًا، على سبيل التلقي لحقائقه العلمية، ومقاصده المعرفية؛ مادةً ومنهجًا، وإنما تكون القراءة مثمرة لهذه الأهداف؛ إذا كانت قراءةً متأنية، تقوم على سرد النصوص أولًا، ثم تدارس القضايا الكامنة فيها؛ دلالةً أو استدلالًا، ومناقشة المشكلات الواردة عليها، وعقد المقاربات والمقارنات الممكنة مع غيرها.

ثم يواصل الطالب تكوينه - بعد ذلك - بالنظر في كتب أخرى، سميناها: « **كتب استكمال التكوين** »، وهي عبارة

عن كتب مقترحة للمطالعة الشخصية، والتتبع الفردي، في كل مادة علمية، بعد إتقان مصطلحاتها، وضبط مناهجها، واستيعاب قضاياها المعرفية، من خلال « كتاب التخرج » الأساسي المقروء على الشيخ.

وقد اخترنا أغلب الكتب المقررة بهذا البرنامج من عيون مكتبة التراث الإسلامي، وأمهات مصادر العلوم الشرعية واللغوية، مما تخرَّج عليه علماء أفذاذ، وربانيون مجددون، أو مما ألفوه بأنفسهم وتخرَّج عليه تلامذتهم، ممن هم على شاكلتهم أو يقاربونهم، واللّـه الموفق للخير والمعين عليه.

وما أفسد طلب العلم في زماننا هذا - مما هو مبرمج في المعاهد والجامعات - شيءٌ مثل الاعتماد على الملخصات الجزئية، التي يعدها الأستاذ أو يقررها؛ حسب المقررات التجزيئية، ضمن المجزوءات التي وضعتها الوزارة! محددة بغاية زمنية من الامتحانات، التي تفرض نفسية المسارعة والتقتير في المعطيات العلمية؛ بما يؤدي إلى تجزيء المجزوء، وتفتيت المفتَّت! فيدخل الطالب في برامج الدراسة للعلوم، بصورة لا تأتي على غاية أي علم! ولا تجمع شيئًا من أصوله الكلية، ولا قضاياه المنهجية! بما يجعل طلبة الدراسات الإسلامية والشرعية عمومًا يتعرفون على عدة أشياء من العلوم الشرعية، ولكنهم لا يتقنون منها أي شيء.

هذا؛ إضافة إلى فساد القصد، وانحراف النيات عن غاية التعلم الشريف، إلى غاية طلب الدنيا بالشواهد الكاذبة؛ مما ينـزع البركة من العملية التعليمية برمتها! فلا يتخرج من مسالكها عالِمٌ إلا من رحم اللَّـه، وقليلٌ ما هم!

وعليه؛ فإننا نقترح (بَرْنَامَجَ العالِـمِيَّةِ) على الصادقين من طلبة العلم، ممن بنوا نياتهم في هذا الشأن على قصد التعبد، وأحبوا أن ينخرطوا بعلمهم وتعلمهم في حركة تجديد الدين لهذه الأمة، مجاهدين أنفسهم في اللَّـه، واقفين حياتهم على طلب العلم للَّـه، حتى إذا أتم اللَّـه لهم الإمامة فيه؛ كانوا منارات للهدى في حياة هذه الأمة، وأحيا اللَّـه بهم الأرض بعد موتها! وكفى بذلك خيرًا عظيمًا، وشرفًا كبيرًا في الدنيا والآخرة! لهم أجرهم عند ربهم؛ على قدر من تبعهم عليه، لا ينقص من أجورهم شيئًا، إن شاء اللَّـه.

وليس عبثًا أن يقرر الرسول الكريم ﷺ - في الحديث المذكور قَبْلُ - أنَّ: « **فَضْلَ العَالِـمِ عَلَى العَابِدِ كفضلي على أدناكم! إنَّ اللَّـه ﷻ وَمَلَائِكَتَهُ، وأهلَ السمواتِ والأرض، حتى النملة في جحرها! وحتى الحوت! لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْـخَيْرَ!** »[1]، وما ذاك إلا لِمَا تقرر للعالم من الإرث النبوي

---

(١) رواه الترمذي عن أبي أمامة مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٤٢١٣).

العظيم كما في حديث: « **إنَّ العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياء!** »[1] وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم! ذلك؛ وإنما الموفق من وفقه اللَّـه.

مواد البرنامج مرتبة حسب أصولها

الأصل الأول: نصوص الوحي:

مادة القرآن الكريم:

كتاب التخرج: كتاب اللَّـه تعالى، ويُعمل على قراءته حفظًا، وتفسيرًا، وتلاوةً، وتدبرًا، وذلك العمر كلَّه!

مادة آيات الأحكام:

كتاب التخرج: « أحكام القرآن » لأبي بكر بن العربي المعافري.

وهذا كتاب من أعمق المؤلفات في هذا المجال، ومن أرسخها مادةً وأضبطها منهجًا؛ فقد كان منذ القديم مدارَ التخرج لدى كثير من أهل العلم، كما شَكَّلَ مرجعًا أساسيًّا لفقه آيات الأحكام، وميزته - أولًا - أنه مختصر غير مطول، فهو لا يزيد على أربعة أجزاء فقط[2]، ثم إنه - ثانيًا - متعلق بآيات الأحكام فقط، لا يتعداها إلى غيرها من الآيات، فهو

---

(١) جزء حديث، رواه أحمد، وابن حبان، وأصحاب السنن الأربعة، عن أبي الدرداء، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

(٢) بتحقيق الأستاذ محمد عبد القادر عطا.

خاص بالمادة المقررة ليس إلا، ثم هو - ثالثًا - قائم على الاستدلال الأصولي في دراسة الآيات، وتطبيق قواعد الاستنباط بصورة مركزة؛ مما لو قام أحد أهل العلم بشرحه وبسطه لجعله في أكثر من عشر مجلدات! وذلك منهجُ مؤلِّفِه في أغلب مصنفاته، وإنما كان كذلك لكونه من جهابذة العلم، وأساطين الفقه والنظر.

فابن العربي المعافري - رحمه اللّه - من المجتهدين المتميزين في إطار المذهب المالكي، قد تفرد بشخصيته العلمية المستقلة، فهو وإن استعمل أصول مالك - على ما سار عليه أهل المغرب والأندلس - إلا أنه ربما رد بعض أقواله أو اجتهاداته بأقوال واجتهادات أخرى، مما قام الدليل عنده بصحته، أو وصل إليه بنظر جديد واستدلال فريد.

ومن هنا؛ فمن تخرج به ضَمِنَ - بإذن اللّه - أن يكتسب خبرة النظر في مساقات القرآن الدلالية والاستدلالية، فيما يتعلق بالاستنباط الفقهي خاصة.

كتب استكمال التكوين: الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد اللّه القرطبي المالكي، وأحكام القرآن للجصاص الحنفي، وأحكام القرآن للكيا الهراسي الشافعي.

مادة السنة النبوية:

كتاب التخرج: رياض الصالحين للنووي، بتحقيق الألباني.

معلوم أن كتاب (رياض الصالحين) للإمام النووي - رحمه اللّه -، من الكتب التي تلقتها الأمة بالقبول، وكان كثير من أهل العلم ينصح به؛ لأنه جمع بين دفتيه أغلب مجالات التعبد بمرجعية حديثية شاملة، قلما تجدها بهذا الشمول والاختصار في غيره؛ فقد حاول الإمام النووي - رحمه اللّه - أن يجمع كل أبواب العلم من الصحيحين والكتب الستة وغيرها؛ مما يحتاجه المؤمن من السُّنَّة في سيره إلى اللّه، وإصلاح دينه ودنياه، فهو مدونة شاملة، وموسوعة كاملة في السنة النبوية، مع اختصار في الحجم عجيب، بما لا يتعدى جزءًا واحدًا! وقد قام العلامة الألباني - رحمه اللّه - بتحقيق نصوصه الحديثية تخريجًا وحكمًا؛ بما جعل العمل به مأمونًا من الوقوع في الضعيف، وهو أصلًا فيه قليل.

أضف إلى ذلك أنه من الكتب التي تناولتها الشروح المتنوعة الكثيرة؛ بما يجعل الاستفادة منه ميسرة.

كتب استكمال التكوين: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وكتب السنن الأربعة بتحقيق الألباني، ثم كتاب « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن القيم.

ذلك أنه يجب على الطالب أن تكون له مطالعات، ومدارسات في الكتب الستة - على الأقل - ليتعرف بنفسه على مضمونها العام، ومنهجها التصنيفي، ويخبر تراجمها

الفقهية، الواقعة عند بداية الأبواب، وما يقتضيه ذلك من الدليل والاستدلال بها يقرأ من النصوص الحديثية المخرجة بها، وما يلزم من ذلك كله من العلم بالشخصية الفقهية للمصنِّف؛ فمن المعلوم أن خبرة أهل الحديث الفقهية مركزة في تراجم كتبهم، وإنما يصل إلى ذلك بالاستعانة بمن يتلمذ عليه من أهل العلم؛ ولا يقنع بالوسائط من المؤلفات الأخرى التي تصفها أو تلخصها.

هذا بالنسبة إلى الكتب الستة، وما في معناها على المستوى المنهجي، أما بالنسة لكتاب (زاد المعاد في هدي خير العباد) لابن القيم؛ فهو كتاب من طبيعة أخرى؛ فقد تفرد هذا المصنَّف الثمين في التراث السني؛ بما جمع صاحبه - رحمه اللَّـه - من سنة المصطفى ﷺ في كل مناحي الحياة، مع نظر فقهي دقيق، وترتيب منهجي رصين، وملاحظات علمية وافرة، وفوائد تربوية نادرة، في فقه السنة العامة، والسيرة النبوية الشاملة، نصًّا واستنباطًا، مع التنبيه إلى المقاصد الإيمانية، والحِكَم التربوية لكل نص أو حكم شرعي، وابن القيم عالِـمٌ رباني، وخبير تربوي عَزَّ نظيرُه بين رجالات التراث الإسلامي! وهو معروف بهذه المنهجية التصنيفية المتوازنة، التي تجمع بين مقتضيات العلم وقواعد التربية؛ ولذلك كان كتابُه هذا جديرًا بما سماه به رحمه اللَّـه: (زاد المعاد في هدي خير العباد).

مادة أحاديث الأحكام:

كتاب التخرج: موطأ الإمام مالك، ونيل الأوطار للإمام الشوكاني.

فأما موطأ إمام المدينة مالك بن أنس - رحمه اللَّـه - فهو أساس المذهب المالكي، ومنطلقه المنهجي، وهو أول مصنف - في الإسلام - في فقه أحاديث الأحكام، وقد كان الإمام الشافعي يقول - وهو مَنْ هو -: (ليس تحت أديم السماء - بعد كتاب اللَّـه - أصح من موطأ مالك!)[١].

وقال عبد الرحمن بن مهدي: (ما نعرف كتابًا في الإسلام - بعد كتاب اللَّـه - أصح من موطأ مالك!)[٢].

وقال ابن تيمية: (وموطأ مالك فيه الأحاديث والآثار وغير ذلك، وهو من أَجَلِّ الكتب!)[٣].

ومن أدق فوائد مدارسة كتاب الموطأ: الكشفُ عن المنهج الفقهي الجامع، الذي كان عليه السلف من هذه الأمة، قبل استقلال أصول الفقه بالاتجاه النظري، وما كان عليه الفقه - قبل ذلك - من اندماج بالأصول، في سياق الاشتغال بالنصوص الشرعية؛ ولذلك كانت شروح الموطأ من الأهمية

(١) نقلًا عن مجموع فتاوى ابن تيمية: (١٨/ ٧٤).
(٢) سير أعلام النبلاء: (٩/ ٢٠٥).
(٣) مجموع الفتاوى: (١٨/ ٧٤).

بمكان! ومن أجمعها كتاب الاستذكار لابن عبد البر القرطبي، وكتاب المنتقى لأبي الوليد الباجي. ومن أدقها صنعةً وتعليلًا، وأعمقها تفقيهًا وتأصيلًا - رغم اختصاره الشديد - كتابُ القَبَسِ لأبي بكر بن العربي! فقد قصد مؤلفه - رحمه اللّـه - استنباطَ أصولِ مالكٍ في دراسته المركَّزة هذه، فأتى بالعجب العجاب! حتى إنه عرض فقه مالك بأصوله المنهجية ولكأنما يتلقى عنه مباشرةً! وكل هذه المصنفات واردة ضمن « كتب استكمال التكوين » بهذا الباب.

وأما نيل الأوطار للإمام محمد بن علي الشوكاني، فلما كان من المتأخرين في التأليف في هذا الشأن؛ إذْ توفي - رحمه اللّـه - سنة (١٢٥٥هـ)، وقد شرح كتاب منتقى الأخبار للإمام عبد السلام بن تيمية (الجدّ) المتوفى سنة (٦٥٢هـ)؛ فقد تسنى له جمع علم غزير، مما جاء عن الأولين والآخرين. والشوكاني - رغم نزعته الحنبلية منهجيًا، التي تميل إلى الظاهرية أحيانًا[1]- دارِسٌ عبقري بما للكلمة من

(١) أصل تفقه الإمام الشوكاني كان على المذهب الزيدي - على عادة أغلب أهل اليمن - لكنه صار من الناحية المنهجية إلى المذهب الحنبلي، والدارس لكتاب نيل الأوطار لا يشك في ذلك، وليس معناه أن يوافق الحنابلة في كل شيء فقد يخالفهم في بعض الفروع بما هو مجتهد، لكنه على أصولهم، وهو ما يسمى بـ « المجتهد في إطار المذهب »، المقابل لمصطلح « المجتهد المطلق ».

معنى؛ فقد استطاع في مصنفه هذا أن يجمع أكبر مدونة تطبيقية للقواعد الفقهية والأصولية في صورة عَمَلِيَّةٍ نادرة! فكل حجاجه إنما كان قائمًا على التقعيد العلمي للاستنباط والاجتهاد؛ فجاء كتابه بذلك أكبر مدرسة للتخرج بصناعة الاستنباط الفقهي، في مجال أحاديث الأحكام.

إلا أن عيبه المنهجي أنه يَهِمُ في إسناد المذاهب إلى أربابها؛ بسبب أنه ينقلها بالواسطة، وهذا أمْرٌ وقفتُ عليه وحققته غير ما مرة، لكنه في غير ذلك مكين متين.

ويمكن الاستعاضة عنه بكتاب « سبل السلام شرح بلوغ المرام » للإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني. وهو كتاب مدرسي مشهور تخرج به عدد كبير من علماء العصر، لكنه أقل جودة من « نيل الأوطار » فيما يتعلق بالتقعيد الفقهي والاستدلال الأصولي، وهذان هما مناط التكوين والتدريب على اكتساب الملكة الفقهية، التي هي غاية هذا البرنامج؛ ولذلك إنما اكتفينا بإدراجه ضمن « كتب استكمال التكوين ».

كتب استكمال التكوين: كتاب « الـمُنْتَقَى » للباجي، وكِتَابَا « التمهيد » و « الاستذكار » لابن عبد البر، وكتاب « القَبَس » لأبي بكر بن العربي، وكتاب « سبل السلام » للأمير الصنعاني.

الأصل الثاني: العلوم الشرعية:

علم الفقه مادة الفقه المالكي:

كتاب التخرج: القوانين الفقهية لابن جزي الغرناطي.

وكتاب القوانين لابن جزي - رحمه اللَّـه - كتاب مظلوم! كما وقع ظلم كتاب الموافقات للشاطبي؛ إذْ لم يشتهر ذلك الاشتهار الذي يجعله كتابًا مدرسيًّا إلا في القرن الماضي! وقد احتلت ملخصاتٌ أخرى الصدارة في الفقه المالكي، وهي لا ترتقي علميًّا إلى مستوى القوانين؛ فهذه المدونة المختصرة للفقه المالكي قد تميزت بما لم يتميز به غيرها في تاريخ المذهب.

ويكفي من ذلك تعريف المصنِّفِ نفسه بكتابه هذا، حيث قال رحمه اللَّـه: (واعلم أن هذا الكتاب ينيف على سائر الكتب بثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: أنه جمع بين تمهيد المذهب، وذكر الخلاف العالي. بخلاف غيره من الكتب، فإنها في المذهب خاصة، أو في الخلاف العالي خاصة.

الفائدة الثانية: إنا لمحناه بحسن التقسيم والترتيب، وسهلناه بالتهذيب والتقريب، فكم فيه من تقسيم قسيم، وتفصيل أصيل، يقرب البعيد، ويلين الشريد.

الفائدة الثالثة: إنا قصدنا إليه الجمع بين الإيجاز والبيان،

على أنهما قلما يجتمعان؛ فجاء - بعون اللَّـه - سهل العبارة، لطيف الإشارة، تام المعاني، مختصر الألفاظ، حقيقًا بأن يلهج به الحفاظ!)[1]، ولقد صدق - رحمه اللَّـه - فكل هذه الميزات موجودة في القوانين وزيادة، فهو أجمع مختصر مفيد في الفقه المالكي، مع المقارنة بالمذاهب الكبرى؛ حتى قال بعضهم: « إنه مختصر من كتاب بداية المجتهد لابن رشد »، وهو غير صحيح؛ فمادته تزيد من حيث التفريع على الكتاب المذكور بكثير، بل هو مختصر من كتب شتى، ولا علاقة من الناحية المنهجية بين الكتابين.

كتب استكمال التكوين: الكافي لابن عبد البر القرطبي، والذخيرة للإمام القرافي، والبيان والتحصيل لابن رشد الجد، وشرح العلامة الخرشي على مختصر خليل، وشرح الرسالة للشيخ أحمد زروق، ومسالك الدلالة لأحمد ابن الصديق الغماري، ثم مدونة الفقه المالكي للدكتور الصادق الغرياني[2]، وهذا الأخير من أجود الكتب المعاصرة في الفقه المالكي مادةً ومنهجًا.

مادة الخلاف العالي:

كتاب التخرج: بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد الحفيد.

---

(١) القوانين الفقهية: (ص٢).

(٢) مع مراعاة ما سبق ذكره في مادة « أحاديث الأحكام » من شروح لكتاب الموطأ.

أما كتاب « بداية المجتهد » فأنا أزعم أنه لم يؤلَّف في الفقه الإسلامي مثلُه! فهو فريدة منهجية، في عرض المادة الفقهية، مؤصلةً تأصيلًا علميًّا دقيقًا جدًّا! فغير المتخصص لا قدرة له على مجرد فهم الكتاب! لدقة صنعته، وعمق تحليله للقضايا الفقهية، وتوجيه الفهوم والخلافات، على مستوى الخلاف العالي، والسبب في ذلك أن المؤلف - وهو القاضي الفيلسوف المنطقي - قد جمع هذه المدونة لنفسه أساسًا؛ لتساعده في مهنة القضاء وفي الفتوى؛ فاستفاد هو من علم الفقه أحكامه، واستفاد علمُ الفقه منه دقةَ العرض المنهجي، وعمق التحليل للظواهر والإشكالات، مع الاختصار العجيب غير الـمُخِلِّ، بما لا تجده في غيره. وما رأيت كتابًا جديرًا بتسميته حقًّا وصدقًا مثله! فهو - إذا دُرِسَ بشروطه - كان مدرسة حقيقية لتخريج الفقهاء المجتهدين.

كتاب استكمال التكوين: الاستذكار لابن عبد البر الأندلسي.

ويكفي بكتاب (الاستذكار) مصدرًا وثيقًا لعلم الخلاف العالي، أو الفقه المقارن. فهو أصل مادة « بداية المجتهد لابن رشد »، في هذا المجال كما صرح بذلك ابن رشد نفسه، بل هو أصل كثير من الكتب التي ألفت في المشرق والمغرب، وقد قَلَّ فيه الوهم والخطأ في إسناد المذاهب إلى أصحابها؛ بل عليه المعول في تحقيق نسبتها إلى أربابها، وتصحيح أوهام النقلة من

أهل التصانيف الأخرى في مجال الخلاف؛ لأنه يروي بسنده المتصل بلا واسطة، فهو حافظ المشرق والمغرب، وهو رَاوِيَةٌ نقَّادة، جَامِعٌ - بقوة - بين الرواية والدراية؛ حتى إنه لُقِّبَ ببخاري المغرب! لحفظه وإتقانه وضبطه رحمه اللّـه.

والاستذكار رغم أنه شرحٌ لكتاب الموطأ؛ إلا أنه جاء بعلم غزير، وجال بين أقوال الفقهاء بشتى مذاهبهم، البائدة والمستمرة، عارضًا ومقارنًا، وشارحًا ومبينًا، وناقدًا ومرجحًا. كل ذلك بنقل أمين، وحفظ متين، ومنهج رصين؛ بما جعله من أكبر الموسوعات الفقهية الوثيقة في علم الخلاف العالي.

مادة فقه النوازل والفتوى:

كتاب التخرج: مسائل ابن رشد (الجد)، بتحقيق الدكتور الحبيب التجكاني، أو « فتاوى ابن رشد » بتحقيق الدكتور المختار ابن الطاهر التليلي[1].

وأما في مجال النوازل والفتاوى فيعتبر ابن رشد الجد عمدة المذهب المالكي، ومرجع الإفتاء فيه؛ ولذلك كانت « مسائله »

---

(١) هو كتاب واحد حققه الباحثان المذكوران أعلاه، وتحقيق العلامة التجكاني أدق؛ ولذلك فتسمية الكتاب بـ (مسائل ابن رشد) أقرب إلى الأصل؛ على ما تقتضيه النصوص الموثقة للكتاب، وكما هو واضح حتى من البحث الذي أنجزه الدكتور المختار نفسه، فنصوصه التي عرضها ناطقة بذلك، وترجيحه لتسمية (الفتاوى) غير معلل.

معتمدة لدى الفقهاء والقضاة على صعيد المذهب وغيره؛ فهو الفقيه المجدد في عصره، وقد اخترنا « مسائله » لِمَا جمعت بين الاختصار والتأصيل، وهناك كتب أخرى موسعة في فقه النوازل والفتوى، مفصلة في التأصيل والتعليل، تركناها لمجال « استكمال التكوين »، وهي:

كتب استكمال التكوين: المعيار للونشريسي، ونوازل المهدي الوزاني، ومجموع فتاوى ابن تيمية، وفتاوى الإمام الشوكاني.

مادة علم أصول الفقه:

كتاب التخرج: إرشاد الفحول للشوكاني، وكتاب الموافقات للشاطبي.

فالأول فيه خلاصة الفكر الأصولي جملة بصورة مركزة جدًّا، والثاني فيه تعمق مقاصدي في أصول الشريعة ومناهج الاستدلال؛ بما يمكّن الطالب من سعة النظر في الأدلة، وعلو الفهم للنصوص، وشمول الإدراك للكليات الأصولية، ومسالك تخريج جزئياتها.

والجمع بين الكتابين ضروري للتخرج الصحيح في هذه الصناعة؛ إذ لا بد من جمع المادة الأصولية من حيث قضاياها العلمية وإشكالتها المنهجية، وهذا لا بد فيه من مختصر جامع مانع. ولا أفضل في هذا من كتاب « إرشاد

الفحول » للشوكاني؛ فقد تميز من حيث دقة الاختصار للمادة، وحسن العرض لها والإتقان، مع سهولة في البيان. وأغلب المختصرات إنما هي عبارة عن مغلقات ومعميات. والشوكاني بما هو متأخر زمانًا فقد تسنى له الجمع الشامل للمادة الأصولية عبر تاريخها الطويل، وهذه من أهم فوائد كتابه إرشاد الفحول. ولعله استفاد في ذلك من كتاب البحر المحيط للزركشي، وهو من أضخم الموسوعات التاريخية في علم الأصول. وكفاك بالشوكاني ملخصًا للعلم؛ عارضًا وناقدًا.

وأما كتاب الموافقات للشاطبي – رحمه اللّـه – فله قصة أخرى! وإني أزعم أن علم أصول الفقه إنما أسسه رجلان: الشافعي والشاطبي؛ فالشاطبي هو الذي جدد هذا العلم ورجع به إلى (قواعد إبراهيم)[١] أعني: قواعد الشافعي منهجيًّا؛ إذ التفكير المقاصدي إنما بدأه الشافعي على مستوى مراد الشارع الإفهامي، ثم أتمه الشاطبي على المستويات الابتدائية، والتكليفية والتعبدية، وجدد في بنية قصد المكلف بما لم يُسبق إليه منهجيًّا. فهو إذن الذي بعث الروح

---

(١) مَثَّل منهجي مأخوذ من الحديث النبوي في قوله ﷺ لعائشة ﵂: « ألم تري أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن (قواعد إبراهيم)؟ فقلت: يا رسول اللّـه، ألا تردها على (قواعد إبراهيم)؟ قال: « لولا حَدَثَانُ قومِك بالكفر لفعلت! » متفق عليه.

في هذا العلم، من بعد ما كاد يقتله المنطق الأرسطي أو قُلْ قتله فعلًا! فلا مناص من التخرج بكتاب الموافقات لمن أراد إتقان الصناعة الأصولية، والتمكن من الملكة الاجتهادية حقًّا.

ولذلك فَرَوْمُ الفصل بين المقاصد والأصول، والقول باستقلال هذه عن تلك - كما قال به بعضهم - فسادٌ في الفهم وعبث في العلم. فهو قتلٌ لعلم أصول الفقه ورجوع به القهقرى! وتأسيس لعلم « جديد » بغير جدوى! ومحاولة ذلك - في الحقيقة - إنما هي تعبير عن (أزمة هوية) لِمَا يُسمى اليوم بـ« الفكر الإسلامي المعاصر » ليس إلا، هذا الذي يحاول أن يؤسس نفسه ولَـمَّا يَدْرِ كيف! والذين ينادون باستقلال المقاصد عن أصولها إنما يعبرون في حقيقة الأمر عن هذه الأزمة المنهجية[1]، وإنما الموفق من وفقه اللـه، وهو وحده المستعان.

كتب استكمال التكوين: الرسالة للإمام الشافعي، والبرهان للجويني، والمستصفى للغزالي، والمعتمد لأبي الحسين البصري، والمحصول للإمام الرازي، وإحكام الفصول للباجي، وشرح التنقيح للقرافي، والبحر المحيط

---

(١) أول من أطلق هذه الدعوة هو الشيخ الطاهر ابن عاشور التونسي - رحمه الله - في كتابه « مقاصد الشريعة الإسلامية »، وتابعه عليها آخرون، ولكن بلا جدوى.

للزركشي، وإحكام الأحكام لابن حزم الظاهري.

مادة القواعد الفقهية والأصولية:

كتاب التخرج: كتاب الفروق للإمام شهاب الدين القرافي.

و« فروق القرافي » من أجمع المصنفات في القواعد، كما أنه عميق الدراسة لها، يبين مساقاتها الوظيفية، ومنازلها الفقهية بصورة دقيقة، وله فهم خاص في شرح معنى القاعدة، وموقعها المنهجي بين الفكر الفقهي والأصولي؛ حيث يبين ضرورتها الإجرائية في تنزيل الأحكام الشرعية منازلها التطبيقية، بعد ضبط أصولها النظرية، والقواعد عنده هي الكفيلة بذلك؛ ولذلك فهو مرجع لا غنى عنه لكل من ألَّف في هذه الصناعة، كما أنه لا غنى عنه لكل من عمد التخرج بها.

كتب استكمال التكوين: قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام، وكتاب المنثور في القواعد للإمام برهان الدين الزركشي، ومجلة الأحكام العدلية، وشرح القواعد الفقهية للشيخ مصطفى أحمد الزرقا.

فقواعد العز بن عبد السلام تعتبر أصلًا من أصول الفكر المقاصدي، ومصدرًا من مصادر فقه الموازنات وفقه الأولويات، وضبط فقه التنزيل لقواعد مراعاة المآلات،

وأما كتاب المنثور للزركشي فهو موسوعة كبرى في القواعد الفقهية قلَّ نظيرها، لكن كثيرًا منها عبارة عن مسائل فقهية مخرجة على المذهب الشافعي خاصة، وقام الإمام الزركشي - رحمه اللّه - بشرحها[1]، وأما كتاب شرح القواعد للشيخ الزرقا فهو كتاب حديث حسن التقسيم والترتيب والبيان والشرح، وقد صيغت قواعده على منهج التقعيد العلمي في شكل كليات أو عبارات حاكمة على مضمون مسطري تقعيدي، بما ينفع طالب العلم على تصور مفهوم القاعدة وحسن إعمالها في مجالها.

***

(١) الكتاب حققه الدكتور تيسير فائق أحمد محمود، ونشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت في ثلاثة أجزاء.

مادة علوم القرآن والتفسير:

كتاب التخرج: مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ومختصر تفسير ابن كثير للشيخ أحمد شاكر.

فأما كتاب مناهل العرفان للزرقاني فهو كتاب حديث حسن التصنيف، جامع لأهم عناصر المادة، شارح جيد لمضامينها ومقاصدها، ومُبَيِّنٌ لوظائفها العملية والتفسيرية، خالٍ من العبارات والتعابير الصعبة والمعقدة، وهو - بالنسبة لطالب العلم - أيسر للدراسة من الكتب التراثية المصنفة في هذا المجال، مع أنه حافظ على أغلب مزاياها؛ ولذلك فقد كان مقررًا في معاهد العلم الشرعي بالمشرق والمغرب زمنًا، كما كان مقررًا بجامعة الأزهر بمصر.

وأما تفسير ابن كثير ففيه مادة تفسيرية جامعة، ومختصره لأحمد شاكر أو الشيخ الصابوني كافٍ لجمعها. فيكون الدارس قد جمع بذلك أهم أقوال المفسرين لكتاب اللّه بصورة مركزة حسنة؛ بما يساعده على التدبر لكتاب اللّه وتوجيه مقاصده في شتى المجالات العلمية.

كتب استكمال التكوين: البرهان في علوم القرآن للزركشي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، وتفسير الإمام أبي جعفر الطبري، وتفسير الإمام الزمخشري،

وتفسير البيضاوي، وتفسير الرازي، والمحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، وكتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الغرناطي، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وصفوة التفاسير للصابوني.

ومن الموسوعات المعاصرة في الدراسات القرآنية كتاب (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) للدكتور محمد عبد الخالق عضيمة، وهذا كتاب في الحقيقة عظيم الفائدة، بالغ النفع؛ فقد جمع فيه صاحبه - بصبر وأناة عجيبين، وخبرة عميقة - أهم القضايا اللغوية والأسلوبية، الإفرادية والتركيبية، المتعلقة بالقرآن الكريم، مما ورد لدى الأقدمين في كتب التراث التفسيرية واللغوية والمعجمية وغيرها، ورتبها فأحسن ترتيبها، ثم عرضها في موسوعته هذه عرضًا متقنًا؛ بما يجعل دراسته - في الحقيقة - مدرسةً متميزةً للتخرج في لغة القرآن وحكمته، ومتعةً لتدبر آياته.

مادة علوم الحديث:

كتاب التخرج: منهج النقد في علوم الحديث للدكتور نور الدين عتر، والرفع والتكميل في الجرح والتعديل للشيخ محمد عبد الحي اللكنوي.

ورغم أن كتاب « منهج النقد » للدكتور نور الدين عتر مصنف حديث معاصر؛ إلا أنه من أحسن المدونات - كما

شهد به غير واحد من أهل الاختصاص - في الصناعة الحديثية، ومن تخرج به ضمن - بإذن اللّـه - أن يتمكن من ضبط أهم أصول علم الحديث، ومصطلحه، وقواعده النقدية؛ بما يمكنه من حسن التعامل مع هذا العلم ومصنفاته عبر التاريخ، وعليه بعد ذلك أن يدخل في دراسات تطبيقية ليتمكن من إتقان الصناعة، أما كتاب الرفع والتكميل للعلامة اللكنوي - رحمه اللّـه - فهو موسوعة أكثر تفصيلًا في علم الجرح والتعديل، يبين من أصوله وقواعده ومنهج إعماله؛ ما لا غنى لطالب العلم عنه.

كتب استكمال التكوين: نخبة الفكر لابن حجر، ومقدمة ابن الصلاح مع شرحها « التقييد والإيضاح » للحافظ العراقي، وتدريب الراوي للإمام السيوطي.

ومن الدراسات التطبيقية المهمة لإتقان الصناعة الحديثية: كتاب نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للزيلعي، وتلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني، وكتاب المداوي لعلل المناوي، والمغير على الجامع الصغير، كلاهما للعلامة أبي الفيض أحمد بن الصديق الغماري، والسلسلة الصحيحة والضعيفة للعلامة الألباني، وكتاب إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل له أيضًا.

وكتب العلامة الألباني - رحمه اللّـه - وخاصة السلسلتان

« الصحيحة » و « الضعيفة »، ثم « إرواء الغليل »؛ من أهم الكتب المفيدة في تكوين الطالب عَمَلِيًّا في صناعة التخريج والنقد للأسانيد، ثم التمكين - بعد ذلك - من منهجية الحكم على الأحاديث تصحيحًا وتضعيفًا[(١)].

ويحسن بالطالب أن يدرس كتاب « الرسالة المستطرفة في بيان كتب السنة المشرفة » للشيخ محمد بن جعفر الكُتاني - رحمه اللّـه -. فهذا الكتاب - على صغر حجمه - يعتبر مدخلًا مهمًا لمعرفة مناهج التصنيف في علوم السنة، ومقاصد كل فن من فنونها، فهو يعتبر بحق « مدخلًا » علميًّا جيدًا، لدراسة السنة النبوية، كما أنه يمثل مرجعية وافية (ببليوغرافيا) بأهم المصادر التي ألفت فيها عبر التاريخ! فلا مفر للطالب من دراسته؛ حتى ولو لم يقصد التخصص بهذه الصناعة؛ لأنه مُصَنَّفٌ فريد في بابه، نجح

---

(١) لا ينبغي للطالب أن تعميه العصبيات المذهبية والطائفية عن الاستفادة من شيوخ العلم بشتى مشاربهم ومذاهبهم، بل عليه أن يجمع بين الاستفادة منهم جميعًا مهما اختلفوا هم فيما بينهم، فإنما هو طالب علم وجامع حكمة! يطلبها - إن كان عاقلًا - أنَّى وجدها، فلا ضير أن يجمع مثلًا بين الاستفادة من مؤلفات العلامة أبي الفيض أحمد بن الصديق الغماري، أو أخيه العلامة عبد اللّـه بن الصديق؛ ومؤلفات العلامة محمد ناصر الدين الألباني، وقد عُلم أن آل ابن الصديق والشيخ الألباني كانا على منهجين متناقضين، وقد كانت بينه وبينهم - رحمة اللّـه عليهم جميعًا - معارك ومساجلات، ولكَ أنتَ - بعد التمكن من شروط العلم والاجتهاد - أن تنظر لنفسك ولآخرتك ما تنتحله من المذاهب فقهيًا وعقديًا، وإنما الموفق من وفقه اللّـه.

في تقديم صورة شمولية عن علم الحديث، وبيان أصناف علومه صنفًا صنفًا، وضروب تآليفه فنًّا فنًّا.

علم التوحيد والتزكية / مادة التوحيد:

كتاب التخرج: شرح عقيدة الإمام مالك الصغير للقاضي عبد الوهاب المالكي[(١)].

وهذا الكتاب - على صغر حجمه - له ميزتان في مجال علم التوحيد:

أولهما: أنه على الأصل الأول للمذهب المالكي من التأصيل لعقيدة السلف الصالح، القائمة على الوسط والاعتدال، بلا حشو، ولا تأويل، ولا تشبيه، ولا تعطيل.

ثانيتهما: أنه ألفه عالِمان كبيران من أئمة المذهب المالكي، هما المؤلِّف ابنُ أبي زيد القيرواني الذي كان يُلقب بمالك الصغير، والشارح القاضي عبد الوهاب البغدادي الذي اعتبره ابن حزم الظاهري - إلى جانب أبي الوليد الباجي - أهم من جاء بعد مالك في بناء المذهب المالكي وتأصيله.

كتب استكمال التكوين: الإبانة عن أصول الديانة للإمام الأشعري، والعقيدة الطحاوية لأبي جعفر الطحاوي،

---

(١) حققه مشكورًا الأستاذ بدر العمراني الطنجي، وطبع ببيروت، منشورات علي بيضون.

والشرح والدلالة على مقدمة الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، تأليف الأستاذ الوزاني بردعي.

مادة علم التزكية:

كتاب التخرج: عُدَّةُ المريد الصادق للشيخ أحمد زروق المالكي (ت: ٨٩٩هـ).

وأما الشيخ الفقيه المربِّي الإمام أحمد زروق، الذي كان يُلقب بـ «مُحْتَسِبِ الصُّوفية»؛ لِـمَا اشتهر به من نقد بنّاء لبدع التصوف وشطحاته؛ فهو من أبرز من اشتغل بعلم التزكية تأصيلًا، ولم يكن نقده هدامًا بل كان يستخرج من التصوف درره، ويدع ما سوى ذلك، مبينًا ما فيه من الفساد والابتداع في العبادة والاعتقاد، وكتابه «عدة المريد الصادق» من الكتب التربوية النادرة التي جمعت بين المنهجين النقدي والتربوي[1]، وما رأيت أشبه بالشيخ زروق المغربي - من الناحية المنهجية - مثل أبي إسحاق الشاطبي بالأندلس في كتابه الاعتصام[2]، وابن قيم الجوزية بالمشرق في كتابه مدارج السالكين، طبعًا مع فروق بين الثلاثة لا تُنكَر، ويتميز كتاب «عدة المريد الصادق»

---

(١) حققه الدكتور إدريس عزوزي ضمن دراسته للشيخ أحمد زروق وآرائه الإصلاحية، ونشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.

(٢) واضح تأثر الشيخ زروق (ت: ٨٩٩هـ) بالإمام الشاطبي (ت:٧٨٩هـ) في الاعتصام؛ فقد استعمل بعض مصطلحاته الخاصة كمصطلح: (البدعة الإضافية)، وانتهج منهجه في التحليل والتأصيل، وتقسيم البدع، والرد على المبتدعة.

بالاختصار في مادته، وبدقة التوجيه التربوي النقدي السلس، والعلمي المتين.

كتب استكمال التكوين: كتاب الرعاية لحقوق اللَّـه للحارث بن أسد المحاسبي، ورسالة المسترشدين له، ومدارج السالكين لابن القيم، وبغية السالك في أشرف المسالك[1] لأبي عبد اللَّـه المالقي الساحلي المتوفى: (٧٥٤هـ)، وكليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي.

وهذه من أحسن كتب القوم، ومن أنظفها وأجودها. فكتب المحاسبي - وهو ممن أجمع العلماءُ على استقامة أمره كالإمام الجنيد - كتبًا مفيدة جدًّا في تربية النفس على عزائم الطاعات، وتخليتها من نوازع المهلكات، ثم تثبيتها في طريق التعرف إلى اللَّـه.

وأما مدارج السالكين لابن القيم فهو موسوعة تربوية كبرى، لا نظير له في هذا الشأن؛ لـما امتاز به من التحقيق والتدقيق على مستوى تربية النفس تخليةً وتحليةً، وعلى مستوى تحقيق المفاهيم الصوفية ونقدها. ولولا طوله وصعوبته الاصطلاحية، ودقة تحليلاته في كثير من الأحيان؛ لجعلناه كتاب التخرج الأول بهذه الصناعة. ولكنا ننصح باعتماده تحت رعاية شيخ من أهل العلم المتقنين لهذا الشأن.

---

(١) حققه الدكتور عبد الرحيم العلمي، ونشرته وزارة الأوقاف المغربية.

وأما كتاب بغية السالك للساحلي فهو من أجود المصنفات المغربية في هذا الشأن ومن أقربها إلى السنة في مجال التربية، وقد فرَّعَ صاحبُه كُلَّ مقاماتِ التربية على ثلاث منازل هي: الإسلام، والإيمان، والإحسان؛ أخذًا من حديث جبريل المشهور، وجاء في ذلك بلطائف عجيبة وحِكَمٍ مفيدة. وأخيرًا كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي، مجدد الدين في العصر الحاضر ببلاد الأناضول في تركيا، وميزة (كلياته) أنها من أكبر الموسوعات التي حاول فيها صاحبها تجديد الفكر الصوفي؛ بما يناسب الزمان الجديد وتحدياته، وقد اجتهد لغربلته من الشطحات ما استطاع، وعمل على تأصيل حقائقه في القرآن الكريم بصورة عجيبة حقًا، وقد اشتهرت مقولتُه المنهجية الفريدة: (خُذْ مَا صَفَا دَعْ مَا كَدَر..!)، وكذلك حكمتُه التربوية الجديدة: (إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية؛ بل زمان إنقاذ الإيمان!)[1].

فإذا اجتمعت في مكتبة الطالب هذه المصنفاتُ وأضرابها، مع موازينها النقدية التي لا بد منها، وهي: كتاب العدة للشيخ زروق، والمدارج لابن القيم؛ استفاد خيرًا كثيرًا، ونجا من شطحات القوم، وإنما الموفق من وفقه اللـه.

---

(١) كليات رسائل النور: « سيرة ذاتية »: (٣٦٩).

وعليه؛ فيحسن بطالب العالِـمية أن تكون له أوقات لمطالعتها، ففيها فوائد قلما تجدها في غيرها من كشفٍ لمداخل الشيطان، وبيانٍ لكيفية معالجة النفس وقيادها، ومدارج الترقي بها في منازل الإيمان، كما أن بها لطائفَ وإشاراتٍ في التعريف باللـه تعالى، وتعليق القلوب بحبه تعالى؛ تفريدًا وتجريدًا وإخلاصًا، وذلك الزاد الذي إذا عدمه المؤمن السالك ضاع في المهالك! واللـه المستعان.

الأصل الثالث: اللسان العربي:

مادة النحو العربي وفقه اللغة:

كتاب التخرج: شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، ومغني اللبيب لابن هشام الأنصاري.

فأما شرح ابن عقيل فسهل العبارة مختصر المادة، كافٍ وحده - بإذن اللـه - لمن رام جمع الضروري من علم النحو؛ ولذلك فقد كان أشهر كتاب مدرسي في هذه الصناعة. وأما « مغني اللبيب » فهو أوغل في التخصص، وأعمق في التحليل والتعليل، وهو أشبه ما يكون بما يمكن تسميته بـ « فقه النحو »؛ لِـمَا رام فيه صاحبُه - رحمه اللـه - من بيان المقاصد النحوية لاستعمال الحروف وتركيب الجمل؛ بما لا يوجد في غيره، فهو في هذا الباب مُغْنٍ حقًّا. وأحسب أن من جمع بين الكتابين فقد جمع فضلًا كبيرًا،

وصناعة كافية؛ للتمكن من إتقان أصول العربية وقواعدها؛ فهمًا واستعمالًا، وتلقيًا واستدلالًا.

كتب استكمال التكوين: الكتاب لسيبويه، والخصائص لابن جني، وفقه اللغة وسر العربية للثعالبي، فهذه من الأمهات الأصول، المبتدأةِ في هذا العلم. ويحسن بالطالب الجاد أن يتدرب على مطالعة الأصول ومدارستها.

مادة الأدب:

كتاب التخرج: البيان والتبيين للجاحظ.

وأما أبو عثمان بن بحر الجاحظ - رحمه اللّـه وغفر اللّـه له ما كان عليه من (اعتزال) - فقد كان إمامًا في العربية بلا منازع! ونقصد هنا: العربية بما هي لسان، لا بما هي مجرد لغة، كما أصّلناه من قبلُ بهذه الورقات. فأدب الجاحظ عمومًا، وما دبجه في كتابه البيان خصوصًا - يعتبر من أبدع وأجمل ما دون في اللسان العربي من الأسرار، وكتابه المذكور هذا يوازي كتاب سيبويه في النحو، ورسالة الشافعي في الأصول؛ ذلك أن كتاب البيان جاء جامعًا لأصول الأدب العربي مادةً ومنهجًا، ففيه من صناعة البيان علم غزير.

وأنا زعيمٌ لِـمَنْ تخرج به أن يكون - بإذن اللّـه - أتقن وأضبط للسان العربي؛ بما يؤهله للتعامل مع عربية القرآن

والسنة النبوية، و « البيان » في النهاية كتابٌ لا يملُّ المرء من مطالعته، ولا يكلُّ العقل من مدارسته؛ لما بناه صاحبه عليه من قصد التثقيف والإمتاع في الآن نفسه. والعجيب أن أسلوب الجاحظ - رغم جزالته ومتانته - سهل قريب.

كتب استكمال التكوين: الكامل للمبرد، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وخزانة الأدب للحموي، ووحي القلم للرافعي. ثم المطالعة - بعد ذلك متى سنحت الفرصة - لما سمي - حديثًا - بـ « أدب النهضة » بشتى مدارسه، كمدرسة الديوان التي تزعمها العقاد - رحمه اللّـه - ومدرسة طه حسين، ومدرسة البيان، وأدب المهجر، رغم ما في هذا وذاك من هنات وزلات. فمعرفة الأشياء خير من جهلها، ثم في كل ذلك ترقية للأداء اللساني والتعبير العربي الأسلوبي، ثم إن الأدب المعاصر جزء مهم من « المكونات الثقافية للأمة، التي لا تخلو من تأثير على الحياة العامة[1].

---

(١) إلا أنه قد عُلِمَ أنَّ (الأدب) الذي يكتب هذه الأيام، وهو ما يسمى بـ(أدب الحداثة)؛ إنما هو ضرب من الانحطاط الثقافي، والتخلف الفكري، والتبعية العمياء للآخر؛ بما يدل على عمق الهزيمة النفسية لأصحابه والاستلاب الكامل الشامل لرواده وأتباعه.

وأقول بكل صدق، وبغض النظر عن الجانب الديني، بل من الناحية الفنية البحتة، وكمحترف لصناعة الأدب زمنًا: إنه لا إبداع فيه ولا إمتاع! وإنه ليس بأدب أصلًا! وإنما هو ترجمة ركيكة لمقولات ثقافية أنتجتها بيئة أخرى. ترجمةٌ واقعة بيد قوم لا يحسنون حتى صناعة الترجمة! فلا امتلاك عندهم للعربية، لا لغةً =

مادة الخطابة:

كتاب التخرج: « الخطابة، أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب »، للشيخ الإمام محمد أبي زهرة.

وهذا الكتاب من أجود المصنفات المختصرة في هذا الشأن. فالإمام محمد أبو زهرة - رحمه اللّـه - معروف بتآليفه المتقنة الرصينة، وكتابه هذا عبارة عن دروس ألقاها بجامعة الأزهر بمصر، في مادة (تاريخ الخطابة عند العرب)، ثم طورها بصورة أجود وأوثق، وأصدرها كتابًا شاملًا لخص فيه فن الخطابة عبر التاريخ، مركزًا على ما كان عند العرب من أصولها وقواعدها وآدابها، ومنبهًا على كثير من أسرارها التطبيقية شكلًا ومضمونًا. ولم يَخْلُ الكتاب أيضًا من إيراد نماذج لمشاهير خطباء العرب؛ ولذلك فهو إذا دُرِسَ كفيلٌ - بإذن اللّـه - بتكوين الطالب في هذه الصناعة؛ بما لا يحتاج معه إلا إلى الدخول في دورات تدريبة أو ورشات تطبيقية.

كتب استكمال التكوين: البيان والتبيين للجاحظ، ففيه

=ولا لسانًا! ولا لِلُغَةِ المترجَم منها على الحقيقة! فإذا كتبوا شيئًا مما يسمى عندهم (إبداعًا) كان على ذلك الوِزَانِ! لا طعم له ولا ريح! فإنما هي كتابة فاشلة، عاجزة عاطلة! أشبه ما تكون بهذيان السكران! عجزوا عن قول الشعر، وانهزموا عن درِّ النثر؛ فقالوا بتحطيم الحدود بين الأجناس الأدبية؛ فلا شعراؤهم شعراء، ولا أدباؤهم أدباء، وإنما بَغَلُوا بين هذا وذاك تَبْغِيلًا! ومن هنا فأنا لا أنصح بتضييع الأعمار في مطالعة مثل تلك الخزعبلات التي لا تسمن ولا تغني من جوع!.

أيضا مادة مهمة جدًا في صناعة الخطابة وتقنياتها؛ لا توجد في غيره، ثم كتاب جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا لأحمد بن علي القلقشندي، ومواقف الداعية التعبيرية لعبد اللّـه علوان، ثم أشرطة مرئية لخطباء مشهورين ناجحين، عربًا وعجمًا، مع ضرورة الدخول في ورشات تدريبية تحت إشراف خبير في المجال.

الأصل الرابع: فقه الواقع:

مادة فقه السيرة النبوية:

كتاب التخرج: صحيح السيرة النبوية للشيخ إبراهيم العلي، أو السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية للدكتور مهدي رزق اللّـه.

فالأول كتاب جيد، مكين في جمع مادة السيرة النبوية بمنهج حديثي نقدي، وهو مختصر لا يخل بالمقصود.

والثاني سار على نهجه إلا أنه أكثر منه تفصيلًا، وأدق تأصيلًا، وأوسع جمعًا ونقدًا وتعليلًا![1]. وقد ألف العلامة الألباني كتابًا على نفس المنهج لكنه مات ولم يتمه - رحمه اللّـه.

(١) فاز صاحبه بجائزة الملك فيصل للدراسات الإسلامية.

كتب استكمال التكوين: فقه السيرة للبوطي، وفقه السيرة للغزالي[1].

مادة الفقه السياسي:

كتاب التخرج: لأستاذ خبير بالتحليل السياسي؛ لتحقيق العلم بالواقع المعاصر في أصوله الثلاثة: مكوِّناته، واتجاهاته، وتوازناته.

- والمقصود بالمكوِّنات: القوى والتكتلات المكونة للواقع السياسي، من مذاهب وأحزاب، و« لوبيات » سياسية واقتصادية مؤثِّرة، ومؤسسات متحكمة، سواء منها ما هو في السلطة أو خارجها، وما هو ظاهر علني أو باطن خفي، وما هو في الداخل أو في الخارج، أو له ارتباط بهذا وذاك.

- وأما الاتجاهات: فهي المرجعيات الفكرية، والتصورات (الأيديولوجية)، التي تتحكم في مواقف كل تلك المكوِّنات المذكورة، وتوجه تصرفها.

- وأما التوازنات: فهي فقه خريطة المواقع السياسية، التي تحتلها القوى المختلفة من سائر المكونات، ومعرفة ما يقوم بينها جميعًا من صراع وتدافع، ومدى ما تَـحَقَّقَ لهذه

(١) قام الشيخ الألباني - رحمه الله - بتخريج أحاديث الكتابين والتعليق عليها.

أو تلك من غلبةٍ أو تراجعٍ، وما سبب هذا أو ذاك، وما يُتَوَقَّعُ من احتمالات في سيرورة التوازنات بعد ذاك!

وقد بيَّـنا أن من لا يتقن هذه الصناعة لا يُرْجَى له فقه حقيقي في الدين! وإنما « فقه الدين »: حُسْنُ تنزيل أحكامه على مقتضيات الزمان، وما جَدَّ من أحوال الإنسان، وتَطَوَّرَ من طبائع العمران، وهذه صناعة لا تؤخذ إلا من أفواه أصحابها؛ وذلك لأن الفقه السياسي - في الحقيقة - لا يُتلقى بطبيعته من الكتب، وإنما هو خبرة تؤخذ من أهل الفهم للواقع وسننه الجارية؛ فالواقع السياسي متغير أبدًا، متجدد سرمدًا، سريع التقلب، وفقهه كذلك.

نعم؛ هناك ثوابت في هذا الأمر هي بمثابة سننه وقواعده، فهذه تُتلقى من كتب الفكر السياسي، والقانوني، والتاريخي، وغير ذلك مما أثبتناه ضمن « كتب استكمال التكوين »، وهي كما يلي:

كتب استكمال التكوين: مختصرٌ في تاريخ المغرب، ومدخل إلى دراسة القانون، وشرح لقانون الحريات العامة، وشرح للقانون الدستوري، ومدخل إلى الاقتصاد السياسي. لك أن تختار من هذه المواد ما شئت من المصنفات فيها، فمادتها في الغالب متشابهة.

إلا أنه وجب الاحتياط من الناحية التاريخية؛ وذلك لِـمَا

يستبطن التأليف التاريخي من خلفيات ثقافية وأيديولوجية؛ قد تحرف الحقائق؛ ولذلك فإنه يحسن اعتماد كتاب (المغرب عبر التاريخ) للدكتور إبراهيم حركات. فهو كتاب سهل، سلس، جامع للمقصود، مأمون في نقله وتثبته. مادته غزيرة، وتحليله مرتضى مقبول.

ملاحظات منهجية

الأثافي الثلاثة:

والأثافي العِلمية لهذا البرنامج - من حيث هو تخصص شرعي وصناعة علمية - إنما هي: آيات الأحكام وأحاديثها أولًا، والفقه بأصوله ثانيًا، ثم اللسان العربي ثالثًا.

فهذه تمثل جوهر التكوين في هذا الاختصاص. والمواد الأخرى واجبات أساسية مقصودة لذاتها، أو واجباتٌ وَسِليَّةٌ مقصودة لغيرها، لكنها ضرورية كلها، لا تصح عالمِيةُ الطالب في الواقع إلا بها، لكن يمكن الاجتهاد في ترتيبها تقديمًا وتأخيرًا، كما يمكن إرجاء بعضها إلى حين، على حسب أولويات البرنامج، وظروف الطلب، ووجود الأساتذة والشيوخ.

لكن الثلاثة الأولى هي أصول الأصول لهذا البرنامج، لا يجوز حصول أي تقصير فيها، فبها يكون البدء وإليها المنتهى! ومدارستها مما ينبغي أن يصحب الطالبَ طيلةَ مراحل الطلب؛ إلى أن ترسخ قدمُه في العلم، ثم تكون مراجعاته - بعد ذلك - قائمةً عليها حتى يأتيه اليقين.

المؤهل العلمي المشروط:

يمكن أن يدخل في هذا البرنامج كلُّ من أتم إجازة التعليم الجامعي في الدراسات الإسلامية والشرعية، أو ما

يعادلها مما هو في معناها، كمن تخرج من برنامج التعليم العتيق، أو كلُّ من تَلَقَّى - ولو بصورة خاصة - مداخل للعلوم الإسلامية جملة، وتعرف على مصادرها، وأعلامها، ومصطلحاتها على العموم، ومناهجها الإجمالية.

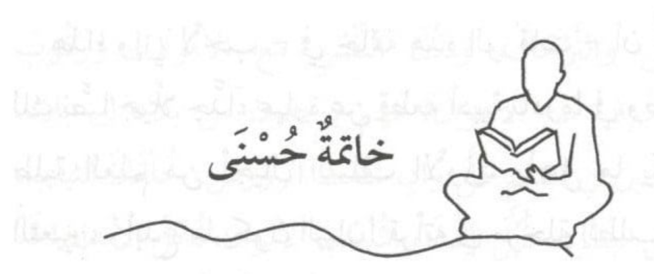
مدة البرنامج:

يمكن تقسيم هذا البرنامج على مدى ثلاث سنوات، مع مرونة تُـرَاعَى حسب الظروف والأحوال؛ زيادةً ونقصًا.

تنظيم الدروس:

يمكن التصرف في هذه المراحل التعليمية تقديمًا وتأخيرًا، حسب مستوى الطلبة؛ بما لا يخرم مقاصد التكوين العلمي في برنامج (مفهوم العالِمِيَّة)، كما بيناه بشروطه وأركانه، كما يمكن التعامل مع هذا البرنامج بصورة جماعية مدرسية، أو بصورة فردية، تحت إشراف أحد أهل العلم، من الخبراء في مجال التربية والتعليم، واللّـه المستعان.

***



خاتِمةٌ حُسْنَى

والآن.. فهل بعد العلم إلا العمل؟ فإلى متى الانتظارُ وحتى متى؟ وها « كلُّ عِلْم ليس تحته عَمَلٌ فهو باطلٌ! » كما قرره المقاصديون، وإنما عَمَلُكَ الآن أيها الطالبُ الْـمُحِبُّ أن تنخرط في سِلْكِ الطلب الخالص للّـه؛ لاكتساب العلم النافع؛ فالأمة الآن أشد ما تكون حاجتها لفتية آمنوا بِربهِم وزادهم هدى، فتية ينذرون أعمارهم - صادقين - لطلب العلم.

ولقد تبين أن الأمة لن تستأنف مسيرتها، ولن تحقق إقلاعها الحضاري مرة أخرى؛ إلا بالعلم؛ فالعلم أول شروط الانطلاق، ولن يَفُكَّ عِقَالَهَا في هذا الاتجاه إلا العلماءُ المجددون، والحكماءُ الربانيون، الذين تحققوا من صفة العالِـمِيَّةِ بشروطها الشرعية الصحيحة. فركوب طريق الطلب إلى هذه المنـزلة العالية؛ هو من أعظم الجهاد في زماننا هذا! وإن الاتصاف بهذه الحِلْيَةِ الغالية؛ ليس بالتمني الكسول، ولا بالادعاء الخامل الـمَلُول! ولكنه عزيمةٌ على دخول المدرسة النبوية بحقها؛ لتزكية النفس، وتعلم الكتاب والحكمة.

هذا؛ وإني لأحب - في خاتمة هذه الورقات - أن أُورِدَ لك نصًّا جميلًا جدًّا، عبارة عن قطعة أدبية نادرة! في وصف طلبة العلم من أجيال السلف الأولى، بأجمل ما يكون التعبير، وأبدع ما يكون البيان! قرأته في مرحلة الطلب من حياتي؛ فكان له أثر عظيم في نفسي، وبقيت صورته شاخصة في ذهني! وصار لي مرجعًا تربويًّا؛ لشحذ همتي كلما خَمَلَتْ عزيمتي! وإنما هو كلماتٌ صدرت عن الإمام منصور بن عمار البغدادي، أديب الوعاظ وبليغ الْـمُحَدِّثِينَ[١].. فقد أخرج الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي؛ أنَّ مَنْصُورًا - رحمه اللّـه تعالى - وَصَفَ طَلَبَةَ العِلْمِ من « أهلِ القرآن وأصحابِ الحديث » في مجلسٍ؛ فقال:

(الحمد للّـه المنعم المنان، مُظهر الإسلام على كل الأديان، وحافظ القرآن من الزيادة والنقصان، ومانعه من مكائد الشيطان، وتحريف أهل الزيغ والكفران (...) وَكَّلَ بالآثارِ الْـمُفَسِّرَةِ للقرآن، والسننِ القويةِ الأركان؛ عِصابَةً مُنْتَخَبَةً، وَفَّقَهُمْ لِطِلَابِهَا وكتابِها، وقوَّاهم على رِعَايَتِهَا وحراستِها، وَحَبَّبَ إليهم قراءتَها ودراستَها، وَهَوَّنَ عليهم الدَّأَبَ والكَلَالَ،

(١) وصفه الذهبي - رحمه الله - بأنه: (الواعظ البليغ، الصالح الرباني، أبو السري السلمي، الخراساني، وقيل: البصري، كان عديم النظير في الموعظة والتذكير!(...) لم أجد وفاة لمنصور، وكأنها في حدود المئتين) سير أعلام النبلاء: (٩/٩٣).

والحَلَّ والتَّرْحَالَ، وبَذْلَ النَّفْسِ مع الأموال، ورُكُوبَ الْـمَخُوفِ من الأهوال! فهم يرحلون من بلاد الى بلاد، خائضين في العلم كلَّ وادٍ، شُعْثَ الرؤوس، خُلْقَانَ الثياب، خُمْصَ البطون، ذُبْلَ الشِّفَاهِ، شُحْبَ الألوان، نُحلَ الأبدان! قَدْ جَعَلُوا لهم هَمًّا وَاحِدًا، ورَضُوا بالعِلْمِ دليلًا ورائدًا. لا يقطعهم عنه جُوعٌ ولا ظَمَأٌ، ولا يُمِلُّهُمْ منه صَيْفٌ ولا شتاءٌ (...).

فَلَوْ رأيتهم في لَيْلِهِمْ وقَدْ انْتَصَبُوا لِنَسْخِ مَا سَمِعُوا، وتَصْحِيحِ مَا جَمَعُوا، هاجِرِينَ الْفَرْشَ الْوَطِيَّ، والْـمَضْجَعَ الشَّهِيَّ! قَدْ غَشِيَهُمْ النعاسُ فأَنَامَهُمْ! وتَسَاقَطَتْ مِنْ أَكُفِّهِمْ أقلامُهُمْ! فانتبهوا مَذْعُورِينَ! قَدْ أَوْجَعَ الكَدُّ أَصْلَابَهُمْ! وتَيَّهَ السَّهَرُ أَلْبَابَهُمْ! فَتَمَطَّوْا لِيُرِيحُوا الأبدانَ، وتَحَوَّلُوا لِيَفْقِدُوا النَّوْمَ مِنْ مَكانٍ إلى مكانٍ، ودَلَكُوا بأيديهم عُيُونَهُمْ، ثم عَادُوا إلى الكتابةِ؛ حِرْصًا عليها، ومَيْلًا بأهوائهم إليها؛ لَعَلِمْتَ أنهم حَرَسُ الإسلام، وخُزَّانُ الْـمَلِكِ العَلَّامِ! فإذا قَضَوْا من بعضِ مَا رَامُوا أَوْطَارَهُمْ؛ انصرفوا قَاصِدِينَ دِيَارَهُمْ، فَلَزِمُوا المساجدَ، وعَمَرُوا الْـمَشَاهِدَ، لَابِسِينَ ثَوْبَ الْخُضُوعِ، مُسَالِمِينَ ومُسْلِمِينَ، يَمْشُونَ على الأرضِ هَوْنًا، لا يُؤذونَ جَارًا، ولا يُقَارِفُونَ عارًا..! حتَّى إذا زَاغَ زَائِغٌ أَوْمَرَقَ في الدِّينِ مَارِقٌ؛ خَرَجُوا خُرُوجَ الأسدِ من الآجَامِ! يُنَاضِلُونَ عن مَعَالِمِ الإسلامِ!)[١].

(١) المحدث الفاصل للحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي: (٢٢٠، ٢٢١).

وتاللَّـه إنها لكلمات من الحكمة الغالية! التي في مثلها قال اللَّـه جل وعلا: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩] صورةٌ عَرَضَتْ لطلاب العلم - بأسلوب جذاب - نموذجَ الطلب العالي! جمع بين عزائم الصبر على الأهوال والمشاق؛ وعزائم التخلق بمكارم الأخلاق! وعَلَّقَ القلوبَ - في مسيرة العلم الشاقة - بجمالِ القَصْدِ وحلاوةِ الشَّهْد! فلمثل هذا الكلام من العلم تُشَدُّ الرحال، وتُعْقَدُ عزائمُ الترحال والتجوال!

فأنْ تكون من هؤلاء وعلى شرطهم؛ لا بد لكَ - أيها الطالب المحبُّ - من اتخاذ قرار نَذْرِ العمر للَّـه! وإنها بينك وبين هذا القرار العظيم ثلاثة شروط، مأخوذة مما سبق من بيان في وصف طلبة العلم، في أجيال السلف الصالح، وهي:

الأول: تجريد القصد للَّـه، بإخلاص النية للتعبد بالعلم؛ تعلمًا وتعليمًا، وتزكيةً ودعوةً إلى اللَّـه، وهذا يحتاج منك إلى مراقبة دائمة. فاجتنب رفقاء الجدل؛ فإنهم فتانون! وإنه لا أحَدَ أَفْسَدُ للإخلاص بقلب طالب العلم منهم! فلا هم يَصِلُونَ في طريق العلم إلى غاية، ولا هم يتركون سواهم يصل! فهؤلاء هم « شياطين العلم »! على غرار شياطين الصلاة! فاحذرهم أن يفتنوك عما أنت عليه من الخير؛ قصدًا

وعملًا! واصحب رفقةً من الطلبة الصالحين، لَيِّنَةَ الجانب، لطيفة المعشر، ينصحون برفق، ويناقشون بمحبة، لا جهل ولا عنت ولا حسد، قلوبهم متعلقة بالأوقات والصلوات، والسير إلى المساجد والجماعات. أما علامتهم فواضحة جدًّا! هي قول اللَّـه تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩]، هذه آية القياس للأشخاص، وبصيرة المعرفة بالناس، فعُضَّ عليها بالنواجذ! وإنه لأمر مهم في طريق العلم والتعلم؛ فتنبه له.

الثاني: عزيمة قوية تركب سفائنها، وتبحر في خضم الليالي والأيام، بلا ملل ولا كلل! وتصحب أهل العلم من العلماء الربانيين إن وجدتهم في بلدك، تلزمهم في حلهم وترحالهم، وتتلقى عنهم العلم والحكمة، أو ترحل إليهم أينما كانوا إن عدمتهم ببلدك، واللَّـه - جل وعلا - يضمن لك رزقك ومأواك؛ ما دمت قد أخلصت القصد، والتزمت العهد؛ فلن يخزيك اللَّـه - إن شاء اللَّـه - أبدًا! فاحذر أن تلين عزيمتك أو تضعف شكيمتُك! وإنما القويُّ من قَوِيَ باللَّـه! فتوكل عليه وانطلق!

الثالث: أن تلتزم منهجًا ثابتًا، فإن كثرة البدايات من المثبطات، وإن التنقل العشوائي من فن إلى فن، ومن وادٍ إلى

وادٍ في طريق العلم؛ لَهُوَ من المهلكات؛ لأنه ضرب من الانقطاع الخفي؛ ومن حِكَمِ الأثر: (إنَّ الـمُنْبَتَّ لاَ ظَهْرًا أبْقَى ولاَ أرْضًا قَطَعَ!)[١] والمنبت: هو الذي ينقطع عن الركب.

فإذا بدأت برنامجًا علميًّا فلا تنتقل إلى غيره حتى تتمه، اللهم إلا أن يتبين لك فساده، بعد مشاورة أهل العلم من الخبراء بالميدان، وقد أخرج ابن عبد البر بسنده إلى يونس ابن يزيد قال: (قال لي ابن شهاب: يا يونس، لا تُكَابِرْ هذا العِلْمَ! فإنما هو أَوْدِيَةٌ، فأيها أخذتَ فيه قبل أن تَبْلُغَهُ قَطَعَ بِكَ! ولكنْ خُذْهُ مع الأيام والليالي! ولا تأخذ العلمَ جملةً، فإنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جملةً ذَهَبَ عنه جملةً! ولكن الشيء بعد الشيء، مع الأيام والليالي)[٢].

وأَكْثِرْ من الذِّكْرِ والدعاء! واجمع مكارم الأخلاق في طريقك! فإنه لا بركة في علم لم ينتفع به صاحبه أوَّلًا. ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[فصلت: ٣٥]، واللـه المستعان.

---

(١) يروى مرفوعًا إلى النبي ﷺ، ولكنه لا يصح، وحكمته التربوية صحيحة مليحة، يشهد لها القرآن والأحاديث الصحيحة، والتجربة الميدانية، وصيغته: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق! فإن الـمُنْبَتَّ لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى!) رواه البزار عن جابر، وقال الشيخ الألباني: (ضعيف)، حديث رقم: (٢٠٢٢) في ضعيف الجامع.

(٢) جامع بيان العلم: (١/ ٢٠٦).

وبهذا كمل التقييد المقصود، والحمد للـه الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلَّى اللـه وبارك على سيدنا محمد وآله وسلَّم تسليمًا.

وكتبه - بمكناسة الزيتون - عبد ربه، راجي عفوه

وغفرانه، فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي،

عفا اللـه عنه، وغفر له ولوالديه ولسائر

المسلمين، وكان تمام تصنيفه وتنقيحه

بحمد اللـه يوم: الخميس، تاسع

عشر ذي الحجة، من عام

١٤٢٦هـ، الموافق لتاسع

عشر يناير من عام

٢٠٠٦م

والحمد للـه الذي بنعمته تتم الصالحات

***

ملحق

(نص الوصية)

وصية الإمام الحافظ
أبي الوليد الباجي
لِوَلَدَيْهِ رحمهم اللّـه أجمعين[1]

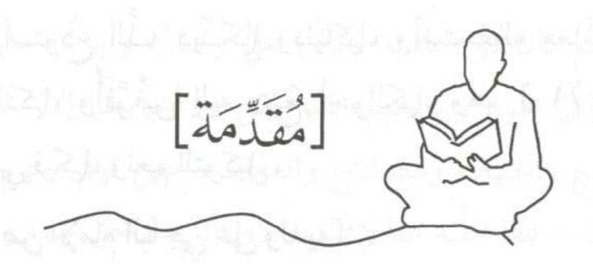
(١) سبق البيان أن النص حققه مشكورًا فضيلة الأستاذ: جلال علي الجهاني، نشر مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت. ط. الأولى: (١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م). وقد استخرجه من مخطوط ضمن مجموع بمكتبة الأسكوريال بمدريد، تحت رقم: (٧٣٢). والتعليقات الواردة بهامشها وكذا التخريجات هي له، وقد اختصرت بعضها.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلّى اللّـه على سيدنا محمد وآله

قال الشيخ الفقيه الإمام الحافظ أبو الوليد الباجي رضي اللّـه عنه ورحمه:



[مُقَدِّمَة]

يا بَنِيَّ! هداكما اللّـه وأرشدكما، ووفقكما وعصمكما، وتَفَضَّل عليكما بخير الدنيا والآخرة، ووقاكما محذورهما برحمته! إنكما لما بلغتُما الحدَّ الذي قَرُبَ فيه تَعَيُّنُ الفُروضِ عليكما، وتوجهُ التكليف إليكما، وتحققت أنكما قد بلغتما حدَّ من يفهم الوعظ، ويتبين الرشد، ويصلح للتعليم والعلم؛ لَزِمَنِي أن أُقَدِّمَ إليكما وصيتي، وأظهر إليكما نصيحتي؛ مخافةَ أن تَخْتَرِمَنِي مَنِيَّةٌ ولم أبلغ مباشرةَ تعليمكما، وتدريبكما، وتفهيمكما، فإن أَنْسَأَ[١] اللّـه تعالى في الأجل؛ فسيتكرر النصحُ والتعليمُ، والإرشادُ والتفهيم، وما توفيقي إلا باللّـه عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون، بيده قلوبُكُما ونواصيكُما.

وإن حال بيني وبين ذلك ما أتوقعه وأظنه؛ من اقتراب الأجل وانقطاع الأمل؛ ففيما أرسمه من وصيتي، وأبيِّنه من نصيحتي؛ ما إن عملتما به ثَبَتُّما على منهاج السَّلَف الصَّالح، وفُزْتما بالمتجر الرابح، ونِلْتُما خير الدنيا والآخرة.

---

(١) أي: أخّر.

وأستودع اللَّـه دينَكما ودنياكما، وأستحفظه معاشَكما ومعادَكما، وأُفَوِّضُ إليه جميعَ أحوالكما، وهو [١/ أ] حسبي فيكما، ونعم التوكيل.

[حرص الإمام الباجي على ولديه]:

واعْلَمَا أنه لا أحد أَنْصَحُ مني لكما! ولا أشفقُ مني عليكما! وأنه ليس في الأرض من تطيب نفسي أن يُفَضَّل عليَّ غيرُكما! ولا أرفع حالًا من أمر الدين والدنيا سِواكُما!

وأقلُّ ما يوجب ذلك عليكما أن تُصْغِيَا إِلَى قَوْلِـي، وتتعظا بوعظي، وتتفهما إرشادي ونصحي، وتتيقنا أني لم أنهكما عن خيرٍ، ولا أمرتكما بشرٍّ، وتسلكا السبيل التي نهجتُها، وتمتثلا الحال التي مثلتُها.

وَاعْلَمَا أننا أهلُ بيتٍ لم يَخْلُ - بفضل اللَّـه ما انتهى إلينا منه - من صلاح وتدين وعفاف وتصاون؛ فكان بنو أيوب ابن وارث - عفا اللَّـه عنا وعنهم أجمعين - جدنا سعد، ثم كان بنو سعد: سليمان، وخلف، وعبد الرحمن، وأحمد.

وكان أوفر الصلاح والتدين والتورع والتعبد في جدكم « خَلَف »، كان مع جاهه وحاله، واتساع دنياه؛ مُنْقَبِضًا عنها، متقللًا منها، ثم أقبل على العبادة والاعتكاف، إلى أن توفي رحمه اللَّـه.

ثم كان بنو خَلَفٍ: عَمَّاكُما عليٌّ وعُمَرُ، وأبوكُما سليمان، وعَمَّاكُما محمد وإبراهيم، فلم يكن في أعمامكما إلا مشهور بالحج والجهاد، والصلاح والعفاف، حتى توفي منهم على ذلك - عفا اللَّـه عنا وعنهم - وكأنني لاحق بهم، ووارد عليهم، ويصير الأمر إليكما، فلا تأخذا غير سبيلهم! ولا ترضيا غير أحوالهم! فإن استطعتما الزيادة فلأنفسكما تمهدان، ولها تبنيان، وإلا فلا تقصرا عن حالهم!.

[وصية عامة بهذا الدين]:

وأَوَّلُ ما أُوصِيكُما [١/ ب] به ما أوصى به ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وأنهاكما عما نهى عنه ﴿لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وأؤكد عليكما في ذلك وصيتي وأكررها؛ حرصًا على تعلقكما، وتمسككما بهذا الدين، الذي تفضل اللَّـه تعالى علينا به، فلا يستزلكما عنه شيء من أمور الدنيا! وابْذُلَا دونَه أرواحَكما! فكيف بدنياكما؟

فإنه لا ينفع خيرٌ بعده الخلود في النار! ولا يضر ضر بعده الخلود في الجنة! ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فإن مِتُّـا على هذا الدين الذي اصطفاه اللّـه واختاره، وحرَّم ما سواه؛ فأرجو أن نلتقي حيث لا نخاف فُرْقَةً، ولا نتوقع إزالة! ويعلم اللّـه شوقي إلى ذلك، وحرصي عليه، كما يعلم إشفاقي من أن تزِلَّ بأحدكُما قَدَمٌ، أو تَعْدِلَ به فتنةٌ؛ فَيَحِلَّ عليه من سخط اللّـه ما يُحِلُّه دارَ البوار ويُوجِبُ له الخلود في النار! فلا يلتقي مع المؤمنين مِنْ سَلَفِهِ، ولا ينفعه الصالحون من آبائه! يَوْمَ ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].

***



[أقسام الوصية]

وتنقسم وصيتي لكما قسمين: فقسم فيما يلزم من أمر الشريعة، أُبيِّنُ لكما منه ما يجب معرفته، ويكون فيه تنبيه على ما بعده، وقسمٌ فيما يجب أن تكونا عليه في أَمْرِ دُنْيَاكُما [٢ / أ] وتجريان عليه بينكما.

[القسم الأول: ما يلزم من أمر الدين]:

فأما القسم الأول: فالإيمان باللّـه ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله، والتصديق بشرائعه، فإنه لا ينفع مع الإخلال بشيء من ذلك عملٌ.

والتمسك بكتاب اللّـه - تعالى جَدُّهُ - والمثابرةُ على تَـحَفُّظِهِ وتلاوته، والمواظبةُ على التفكر في معانيه وآياته، والامتثال لأوامره، والانتهاء عن نواهيه وزواجره.

رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: « **تَرَكْتُ فيكم مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: كتابَ اللّـه تعالى وسُنَّتِي، عُضُّوا عَلَيْهِا بالنَّوَاجِذِ!** »[١].

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ بلاغًا (٢/ ٨٩٩)، والحاكم (١/ ٩٣)، بدون زيادة (عضوا عليها بالنواجذ) فإنها من حديث عرباض بن سارية (عليكم =

وقد نَصَحَ لنا النبيُّ ﷺ وكان بالمؤمنين رحيمًا، وعليهم مشفقًا، ولهم ناصحًا؛ فاعملا بوصيته! واقبلا نصحه! وأَثْبِتَا في أنفسكما المحبةَ له! والرضا بما جاء به، والاقتداء بسننه، والانقياد له، والطاعة لحكمه، والحرص على معرفة سنته، وسلوك سبيله؛ فإن محبته تقود إلى الخير، وتنجي من الهلكة والشر.

وأَشْرِبَا قلوبَكُما محبةَ أصحابه أجمعين! وتفضيل الأئمة منهم الطاهرين: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ﷺ، ونفعنا بمحبتهم.

وأَلْزِمَا أنفسَكُما حُسْنَ التأويل لِمَا شَجَرَ بينهم، واعتقدا الجميلَ فيما نُقِلَ عنهم، قد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: « **لا تَسُبُّوا أصحابي! فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدُكم مِثْلَ أُحُدٍ ذهبًا؛ مَا بَلَغَ مُدَّ أحدِهم ولا نصيفَه!** »[1]. فَمَنْ لَا يَبْلُغُ

=بسنتي وسنة الخلفاء.. إلخ، وقال الحافظ ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٣٣١): (تركت فيكم) هذا: « وهذا أيضًا محفوظ معروف مشهور عن النبي ﷺ عند أهل العلم، شهرة يكاد يستغني بها عن الإسناد ا. هـ ».

وقال المحدث السيد عبد اللّه الغمراوي - رحمه اللّه تعالى - عن هذا الحديث: ولهذا الحديث طرق تبلغ حدَّ الاستفاضة، وفي بعض طرقه « وعترتي » بدل « وسنتي »، وهي صحيحة أيضًا، وحاصل هذه الروايات الصحيحة ضمان الهداية في العمل بالكتاب والسنة، وفي حب العترة النبوية. ا هـ من بدع التفاسير، (ص ١٠٢) الطبعة المغربية.

(١) رواه البخاري (٧/ ٢١)، ومسلم (٧/ ١٨٨)، وغيرهما.

نَصِيفَ مُدِّهِ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا؛ فكيفَ يُوَازِنُ فَضْلَهُ؟ أو يُدْرِكُ شَأْوَهُ ولَيْسَ [٢/ ب] منهم ﷺ إلا من أنفق الكثير؟!

ثم تفضيلُ التابعين، ومَنْ بعدهم من الأئمة والعلماء - رحمهم اللّه - والتعظيم لحقهم، والاقتداء بهم، والأخذ بهديهم، والاقتفاء لآثارهم، والتحفظ لأقوالهم، واعتقاد إصابتهم.

وإقام الصلاة، فإنها عمودُ الدين وعماد الشريعة، وآكَدُ فرائض الملة؛ في مراعاة طهارتها، ومراقبة أوقاتها، وإتمام قراءتها، وإكمال ركوعها وسجودها، واستدامة الخشوع فيها، والإقبال عليها، وغير ذلك من أحكامها، وأدائها في الجماعات والمساجد؛ فإن ذلك شعار المؤمنين، وسَنَنُ الصالحين، وسبيل المتقين.

ثم أداء زكاة المال، لا تُؤَخَّرُ عن وقتها، ولا يُبْخَلُ بكثيرها، ولا يُغْفَلُ عن يسيرها، ولْتُخْرَجْ من أطيب جنس! وبأوفى وزن! فإن اللّه تعالى أَكْرَمُ الكرماء، وأحق مَن اختير له.

ولْتُعْطَ بطيب نفس، وتَيَقَّنِ أنها بركة في المال وتطهير له، وتُرفع إلى مستحقها دون محاباة، ولا متابعة هوًى ولا هوادة.

ثم صيام رمضان، فإنه عبادةُ السِّرِّ وطاعةُ الرَّبِّ، ويجب

أن يُزَادَ فيه مِنْ حِفْظِ اللسان، والاجتهاد في صالح العمل، والتحفظ من الخطأ والزَّلَل، ويُرَاعَى في ذلك لياليه وأيامُهُ، ويُتْبعُ صيامَه قيامَه، وقَدْ سُنَّ فيه الاعتكاف.

ثم الحج إلى بيت اللّـه الحرام من استطاع إليه سبيلًا، فهو فرض واجب، وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: « الحج المبرور ليس له جزاء عند اللّـه [٣ / أ] إلا الجنة! »[1].

ثم الجهاد في سبيل اللّـه، إن كانت بكما قوة عليه، أو عَوْنُ مَنْ يستطيع إن ضَعُفْتُـما عنه.

فهذه عُمَدُ فرائضِ الإسلام، وإن كان الإيمان حافظًا عليها، وسابقًا إليها، تحوز الخير العظيم، وتفوز بالأجر الجسيم، ولا تُضَيِّعَا حقوقَ اللّـه فيها، وأوامرَه بها، فتَهلكا مع الخاسرين، وتندما مع الـمُفَرِّطِين.

[الحث على طلب العلم]:

واعلما أنكما إنما تصلان إلى أداء هذه الفرائض، والإتيان بها يلزمكما منها - مع توفيق اللّـه لكما - بالعلم الذي هو أصل الخير، وبه يُتَوَصَّلُ إلى البرِّ.

فعليكما بطلبه! فإنه غِنًى لطالبه، وعِزٌّ لحامله، وهو - مع هذا - السببُ الأعظمُ إلى الآخرة، به تُجتنَبُ الشبهات

(1) البخاري (٣/ ٢)، ومسلم (٣/ ١٠٧)، وغيرهما.

وتصحُّ القربات، فكم من عَامِلٍ يُبْعِدُهُ عمله من رَبِّهِ! ويُكْتَبُ ما يَتَقَرَّبُ به من أكبر ذنبه!! قال اللّـه تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

والعِلْمُ سبيلٌ لا يفضي بصاحبه إلا إلى السعادة، ولا يقصر به عن درجة الرفعة والكرامة! قليلُه ينفع، وكثيرُه يُعْلِي ويَرْفَع، كَنـزٌ على كل حال، ويكثر مع الإنفاق، ولا يغصبه غاصبٌ، ولاَ يُخَافُ عليه سارق ولا مُحَارِبٌ.

فاجتهدا في طلبه! واستعذبا التَّعَبَ [٣ / ب] في حفظه، والسهرَ في درسه، والنَّصَبَ الطويلَ في جمعه[1]، وواظبا على تقييده وروايته، ثم انتقلا إلى فهمه ودرايته.

وانْظُرَا أيَّ حالةٍ من أحوال طبقات الناس تختاران؟

(1) وللأستاذ العلامة عبد الفتاح أبي غدّة كتاب « صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل »، جمع فيه نماذج كثيرة من جهود العلماء، وصبرهم، وتعبهم، وبذلهم الغالي والنفيس في سبيله. ينبغي مطالعته لطالب العلم.

ومنـزلةَ أيِّ صِنفٍ منهم تُؤثِرانِ؟ هل تَرَيَانِ أحَدًا أرفعَ حالًا من العلماء؟ وأفضلَ منـزلةً من الفقهاء؟ يحتاج إليهم الرئيس والمرؤوس، ويقتدي بهم الوضيعُ والنفيسُ، يُرْجَعُ إلى أقوالهم في أمور الدنيا وأحكامها، وصحة عقودها وبياعاتها، وغير ذلك من تصرفها، وإليهم يُلْجَأُ في أمور الدين، وما يلزم من صلاة وزكاة وصيام وحلال وحرام، ثم مع ذلك السلامة من التبعات، والحظوة عند جميع الطبقات.

والعِلْمُ وِلَايَةٌ لا يُعْزَلُ عنها صاحِبُها، ولا يَعْرَى من جمالها لَابِسُهَا، وكُلُّ ذي ولاية وإنْ جَلَّتْ، وحُرْمَةٍ وإن عَظُمَتْ إذا خرج عن ولايتِه، وزَالَ عن بلدته؛ أصبح من جَاهِه عَارِيًا، ومن حالِه عَاطِلًا - غير صَاحِبِ العِلْمِ؛ فإن جاهَه يصحبه حيث سار، ويتقدمه إلى جميع الآفاق والأقطار، ويبقى بعده في سائر الأعصار!

وأفضلُ العلم علم الشريعة، وأفضلُ ذلك - لمن وُفِّقَ - أنْ يُـجَوِّدَ قراءةَ القُرْآن، ويَحْفَظَ حديث النبي ﷺ، ويعرف صحيحه من سقيمه.

ثم يقرأ أصول الفقه، فيتفقه في الكتاب والسنة.ثم يقرأ كلامَ الفقهاء، وما نُقِلَ من المسائل عن العلماء، ويَدْرَبُ في طُرُقِ النَّظَرِ وتصحيح الأدلة والحجج.

فهذه الغاية القصوى [٤ / أ] والدرجة العليا.

ومن قصَّر عن ذلك؛ فيقرأ - بعد تحفظه القرآن، وروايةِ الحديث - الْـمَسَائِلَ على مذهب مالك - رحمه اللّـه -، فهي إذا انفردت أنفع من سائر ما يُقرأ مفردًا في باب التفقه.

وإنما خصصنا مذهبَ مالك رحمه اللّـه؛ لأنه إمام في الحديث وإمام في الرأي، وليس لأحَدٍ من العلماء - ممن انبسط مذهبه، وكثرت في المسائلِ أجوبتُه - درجةُ الإمامة في المعنيين.

وإنما يشاركه في كثرة المسائل وفروعها والكلام عن معانيها وأصولها - أبو حنيفة والشافعي - وليس لأحدهما إمامةٌ في الحديث، ولا درجةٌ متوسطة!

وإياكما وقراءةَ شيءٍ من المنطق وكلام الفلاسفة؛ فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد، والبعدِ عن الشريعة والإبعاد.

وأحذركما من قراءته ما لم تقرآ من كلام العلماء؛ ما تقويان به على فهم فساده، وضعف شُبَهِهِ، وقلة تحقيقه، مخافةَ أن يَسْبِقَ إلى قَلْبِ أَحَدِكُما ما لا يكون عنده من العِلْمِ مَا يَقْوَى بِهِ على رَدِّهِ؛ ولذلك أنكر جماعةُ العلماء المتقدمين والمتأخرين قراءةَ كلامهم؛ لمن لم يكن من أهل المنـزلة والمعرفة؛ خوفًا عليهم مما خوفتكما منه.

ولو كنتُ أعلم أنكما تبلغان منـزلةَ الميز والمعرفة، والقوة على النظر والمقدرة؛ لحضضتكما على قراءته! وأمرتكما بمطالعته؛ لِتُحَقِّقَا ضعفَه، وضعفَ المعتقِدِ له، وركاكة المغتر به، وأنه من أقبح [٤ / ب] المخاريق والتمويهات! ووجوه الحيل والخزعبلات، التي يغتر بها من لا يعرفها، ويستعظمها من لا يميزها؛ ولذلك إذا حَقَّقَ مَنْ يَعْلَمُ عند أَحَدٍ منهم؛ وَجَدَهُ عَارِيًا من العلم بعيدًا عنه! يدَّعي أنه يكتم علمه، وإنما يكتم جهله! وهو ينم عليه، ويروم أن يستعين به، وهو يعين عليه.

وقد رأيت ببغداد وغيرها من يدَّعي منهم هذا الشأن مُسْتَحْقَرًا، مستهجَنًا، مستضعفًا، لا يناظره إلا المبتدي! وكفاك بعلم صاحبه في الدنيا مرموقٌ مهجورٌ، وفي الآخرة مدحور مثبور!

وأما من يتعاطى ذلك من أهل بلدنا فليس عنده منه إلا اسمه! ولا وصل إليه إلا ذكره.

وعليكما بالأمر بالمعروف، وكونا من أهله! وانْهَيَا عن المنكر، واجتنبا فعله!

وأطيعا من ولَّاه اللّـه أمْرَكُما ما لم تُدْعَيَا إلى معصية! فيجب أن تمتنعا منها، وتبذلا الطاعة فيما سواها.

وعليكما بالصدق فإنه زَيْنٌ! وإياكما والكذبَ فإنه شَيْنٌ!

ومن شُهِرَ بالصدق فهو ناطقٌ محمود، و من عُرِف بالكذب فهو ساكت مهجور مذموم، وأقل عقوبات الكذَّاب ألا يُقْبَلَ صدقُه، ولا يتحقق حَقُّهُ! وما وصف اللّـه تعالى أحدًا بالكذب إلا ذامًّا له، ولا وصف اللّـه تعالى أحدًا بالصدق إلا مادحًا له ومُرَفِّعًا به.

وعليكما بأداء الأمانة، وإياكما والإلمام بالخيانة! أَدِّيَا الأمانةَ إلى من ائتمنكما، ولا تخونا من خانكما!

وأوفيا بالعهد! إن [٥ / أ] العهد كان مسؤولًا!

أوفيا الكيلَ والوزن! فإن النقص فيه مَقْتٌ! لا ينقص المالُ، بل ينقص الدينُ والحالُ.

وإياكما والْعَوْنَ على سفك دم بكلمة! أو المشاركةَ فيه بلفظة! فلا يزال الإنسان في فسحة من دينه ما لم يغمس يده أو لسانه في دم امرئ مسلم! قال اللّـه تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣]. واجتناب الزنى من أخلاق الفضلاء، ومواقعته عارٌ في الدنيا وعذاب في الآخرة! قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وإياكما وشرب الخمر؛ فإنها أم الكبائر! والْـمُجَرِّئَةُ على المآثم، وقد حرمها اللّـه تعالى في كتابه العزيز، فقال عَزَّ مِنْ

قائل: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١].

وحَسْبُكُما بشيءٍ يُذهب العقلَ ويُفْسِدُ اللُّبَّ، وقد تَرَكَها قومٌ في الجاهلية تكرمًا، فإياكما ومقاربتَها! والتدنس برجِسها، وقد وصفها اللّـه تعالى بذلك، وقرنَها بالأنصاب والأزلام! قال عز من قائل: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠]، فبيَّنَ تعالى أنها من عمل الشيطان، ووصفها بالرجس، وقَرَنَ الفلاح باجتنابها. فهل يستجيز عاقلٌ يُصدِّق الباري في خبره - تبارك اسمُه - ويعلم أنه [٥ / ب] أراد الخير لنا فيما حذرنا عنه منها؛ أن يقربها فيدنس بها؟

وإياكما والرِّبَا! فإن اللّـه تعالى قد نهى عنه، وتوعد بمحاربة من لم يتب منه، فقال عز من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، وقال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ولا تأكلا مَالَ أحَدٍ بغير حق! وإياكما ومالَ اليتيم! فقد قال عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

وعليكما بطلب الحلال، واجتناب الحرام، فإن عدمتما

الحلال فالجآ إلى المتشابه!

وإياكما والظلم! « **فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة!** »[(١)]، والظالِمُ مذمومُ الخلائقِ، مُبْغَضٌ إلى الخلائق[(٢)].

وإياكما والنميمة! فإن أول من يَمْقُتُ عليها من تُنَقَلُ إليه، وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: « **لا يدخل الجنة قتات!** »[(٣)].

وإياكما والحسد! فإنه داءٌ يهلك صاحبَه، ويعطب تابعه.

وإياكما والفواحش! فإن اللّـه تعالى حرم ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق.

وإياكما والغيبة! فإنها تحبط الحسنات، وتُكَثِّرُ السيئات، وتبعد من الخالق، وتبغض إلى المخلوق[(٤)].

وإياكما والكِبْرَ! فإن صاحبه في مقت اللّـه متقلب، وإلى سخطه منقلب.

---

(١) مسلم في صحيحه (٨/ ١٨) عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول اللّـه ﷺ: «إن الظلم ظلمات يوم القيامة».

(٢) الأُولى بمعنى الطبائع والأخلاق، والثانية: الناس.

(٣) البخاري (٨/ ٦١)، مسلم (٤/ ١٦٩)، وغيرهما.

(٤) روى مسلم في صحيحه (٨/ ٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّـه ﷺ قال: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: اللّـه ورسوله أعلم، قال: « ذكرك أخاك بما يكره »، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته ».

وإياكما والبخل! فإنه لا داءَ [٦ / أ] أَدْوَأُ منه! لا تسلم عليه ديانة، ولا تتم معه سيادة[١].

وإياكما ومواقفَ الخزي! وكلُّ ما كرهتما أن يظهر عليكما فاجتنباه! وما علمتما أن الناس يعيبونه في الملَا فلا تأتياه في الخلَا.

فإن بلغ أحدُكُما أن يسترعيه اللّـه أمةً؛ بحكمٍ أو فتوى؛ فليمتثل العدل جهدَه! ويجتنب الجور وَغَدْرَه! فإن الجائر مضاد للّـه في حكمه، كاذب عليه في خبره، مُغَيِّرٌ بشريعته، مخالف له في خليقته، قال اللّـه تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧]، وقد رُوِيَ: « **أن الخلق كلهم عيال اللّـه، وإن أحب الخلق على اللّـه أَحْوَطُهُمْ لعياله** »[٢]، ورُوِيَ: « **ما امرؤ اسْتُرْعِيَ رَعِيَّةً فلم يَحُطْهَا بنصيحةٍ إلا حَرَّمَ اللّـه تعالى عليه الجنَّة!** »[٣].

---

(١) روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قال: « واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ».

(٢) روى الطبراني في الكبير والأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود مرفوعًا « الخلق كلهم عيال اللّـه وتحت كنفه فأحب الخلق إلى اللّـه من أحسن إلى عياله »، وإسناده جيد، انظر تخريج السيد عبد اللّـه الغماري لبداية السول في تفضيل الرسول للإمام العز بن عبد السلام، (ص ١٩).

(٣) روى البخاري في صحيحه (٩/ ٨٠) عن معقل بن يسار مرفوعًا: « ما من عبد يسترعيه اللّـه رعيته فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة »، وانظر أحاديث العادلين لأبي نعيم الأصبهاني مع تخريج الحافظ السخاوي لها، ففيه فوائد.

وإياكما وشهادةَ الزور! فإنها تقطع ظهر صاحبها، وتفسد دين متقلدها، وتخلد قبح ذكره! وأول من يمقته وَيَنِمُّ عليه المشهودُ له!

وإياكما والرشوة! فإنها تُعْمِي عين البصيرة، وتحط قَدْرَ الرفيع.

وإياكما والأغاني! فإن الغناء يُنبت الفتنةَ في القلب، ويولد خواطر السوء في النفس.

وإياكما والشَّطْرَنْجَ والنَّرْدَ! فإنه شغل البطالين، ومحاولة المترفين! يُفْسِدُ العمر، ويشغل عن الفرض، ويجب أن يكون عُمُرُكُما أعزَّ عليكما وأفضلَ عندكما من أن تقطعاه بمثل هذه السخافات التي لا تجدي، وتفسداه بهذه الحماقات التي تضر وتُرْدِي.

وإياكما والقضاء بالنجوم والتكهن! فإن ذلك [٦ / ب] لمن صَدَّقَهُ مُخْرِجٌ عن الدين، ومُدْخِلٌ له في جملة المارقين!

وأما تعديل الكواكب وتبيين أشخاصها، ومعرفة أوقات طلوعها وغروبها، وتعيين منازلها وبروجها، وأوقات نزول الشمس والقمر بها، وترتيب درجاتها؛ للاهتداء به، وتعرف الساعات وأوقات الصلوات بالظلال وبها؛ فإنه حسن، مُدْرَكٌ ذلك كلُّه بطريق الحساب مفهوم، قال اللّـه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾

[الأنعام: ٩٧]، وقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

[القسم الثاني: ما يلزم من أمر الدنيا]:

وأما القسم الثاني - مما يجب أن تكونا عليه، وتتمسكا به - فأنْ يلتزم كُلُّ واحد منكما لأخيه بالإخلاص والإكرام، والمراعاة في السر والعلانية، والمراقبة في المغيب والمشاهدة.

وليلزم أكْبَرُكُما لأخيه الإشفاق عليه، والمسارعةَ إلى كلِّ ما يحبه، والمعاضدة فيما يؤثره، والمساهمة لكل ما يرغبه.

ويلتزم أصْغَرُكُما لأخيه تقديمَه عليه، وتعظيمه في كل أمر بالرجوع إلى مذهبه، والاتباع له في سره وجهره، وتصويب قولِه وفعلِه، فإنْ أنكر منه في الملأ أمرًا يريده، أو ظهر إليه خطأٌ فيما يقصده؛ فلا يُظْهِرْ إنكارَه عليه، ولا يجهر في الملأ بتخطئته! ولْيُبيِّنْ له ذلك على انفراد منهما، ورفق من قولهما، فإن رجع إلى الحق وإلا فليتبعه على [٧ / أ] رأيه! فإن الذي يدخل عليكما من الفساد باختلافكما أعظم مما يُحْذَرُ من الخطأ مع اتفاقكما، ما لم يكن الخطأ في أمر الدين، فإن كان من أمر الدين فَلْيَتَّبِعِ الحقَّ حيث كان! ولْيُثَابِرْ على نصح أخيه وتسديده ما استطاع، ولا يُخِلُّ يدَه عن تعظيمه وتوقيره.

ولا يُؤثر أحدكُما على أخيه شيئًا من عَرَضِ الدنيا، فيبخل بأخيه من أجله، ويعرض عنه بسببه، أو ينافسه فيه، ومن وُسِّع عليه منكما في دنياه فليشارك بها أخاه، ولا ينفرد بها دونه، وليحرص على تثمير مال أخيه كما يحرص على تثمير ماله.

وأظْهِرَا التعاضدَ والتواصلَ والتعاطفَ والتناصر حتى تُعْرَفَا به! فإن ذلك مما تُرْضِيَان به ربَّكما، وتُغيظان به عدوَّكما.

وإياكما والتنافسَ، والتقاطعَ، والتدابرَ، والتحاسدَ، وطاعةَ النساء في ذلك! فإنه مما يُفسد دينكما ودنياكما، ويضع من قَدْرِكُما، ويحط من مكانكما، ويُحقر أمركما عند عدوِّكما، ويصغر شأنكما عند صديقِكُما.

ومن أسْدَى منكما إلى أخيه معروفًا، أو مكارمة، أو مواصلةً؛ فلا ينتظر مقارضة عليها، ولا يذكر ما أتى منها، فإن ذلك مما يوجب الضغائن، ويسبب التباغض، ويقبح المعروف، ويحقر الكبير، ويدل على المقت والضعة، ودناءة الهمة.

وإنْ أحدُكما زلَّ، وترك الأخذ بوصيتي في برِّ أخيه ومراعاته؛ فَلْيَتَلَافَ الآخرُ ذلكَ؛ بتمسكه بوصيتي، والصبرِ

لأخيه والرفقِ به، وتركِ المقارضة على جفوته، والمتابعةِ على سوء معاملته. [٧ / ب] فإنه يحمد عاقبةَ صبره، ويفوز بالفضل في أمره، ولا يكون لما يأتيه أخوه كبيرُ تأثير في حاله.

واعْلَما أني قد رأيتُ جماعةً لم تكن لهم أحوال ولا أقدار، أقام أحوالَهم ورفع أقدارَهم اتفاقُهم وتعاضُدهم.

وقد رأيت جماعةً كانت أقدارُهم ساميةً، وأحوالُهم ناميةً؛ مَحَقَ أحوالَهم ووضع أقدارَهم اختلافُهم! فاحذرا أن تكونا منهم!

ثم عليكما بمواصلة بني أعمامِكُما، وأهْلِ بيتِكُما، والإكرامِ لهم، والمواصلةِ لكبيرهم وصغيرهم، والمشاركةِ لهم بالمال والحال، والمثابرةِ على مهاداتهم، والمتابعة لزيارتهم، والتعاهد لأمورهم، والبر لكبيرهم، والإشفاق على صغيرهم، والحرص على نماء مال غنيهم، والحفظ لِغَيْبِهِمْ، والقيام بحوائجهم دون اقتضاءٍ لمجازاةٍ، ولا انتظار مقارضة؛ فإن ذلك مما تَسُوْدَان به في عشيرتكما، وتعظمان به عند أهل بيتكما.

وَصِلَا رَحِمَكُمَا وإن ضعف سببُها، وقرِّبَا ما بَعُدَ منها، واجتهدا في القيام بحقها، وإياكما والتضييع لها، فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: « مَنْ أحب النَّسَاءَ في الأجَلِ، والسَّعَةَ

وفي الرزق؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَه! »[١]، وهذا مما يَشْرُف به مُلْتَزِمُهُ، ويَعْظُمُ عند الناس مُعَظِّمُهُ.

وما علمتُ أهل بيت تقاطعوا وتدابروا إلا هلكوا وانقرضوا..! ولا علمتُ أهل بيت تواصلوا وتعاطفوا؛ إلا نموا وكثروا، وبُورِكَ لهم فيما حاولوا..!

ثم الجَارُ..! [عليكما بحفظه] [٨ / أ] والكفِّ عن أذاه، والستر لعورته، والإهداء إليه، والصبر على ما كان منه؛ فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « **لا يؤمن مَنْ لا يَأْمَنُ جاره بَوَائِقَهُ!** »[٢] ورُوِيَ عنه ﷺ أنه قال: « **ما زال جبريل يوصيني بالجار؛ حتى ظننت أنه سَيُوَرِّثُهُ!** »[٣].

واعْلَمَا أن الجِوَارَ قَرَابَةٌ ونَسَبٌ، فَتَحَبَّبَا إلى جيرانكما كما تتحببان إلى أقاربكما! ارْعَيَا حقوقَهم في مشهدهم ومغيبهم، وأحْسِنَا إلى فقيرهم، وبَالِغَا في حفظ غيبهم، وعَلِّمَا جاهلَهم.

ثم مَنْ عَلِمْتُمَا من إخواني وأهل مودتي، فإنه يتعين

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٦)، ومسلم (٨/ ٨)، وغيرهما بلفظ قريب، ولفظ مسلم: « من سره أن يبسط عليه رزقه أو يُنسأ في أثره فليصل رحمه»، ومعنى التأخير في الأجل: البركة في العمر والتوفيق للطاعات، كما قال الإمام النووي.

(٢) البخاري (٨/ ١٢)، ومسلم في صحيحه (١/ ٤٩)، ولفظ مسلم « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه

(٣) البخاري (٨/ ١٢)، مسلم (٨/ ٣٦)، وغيرهما.

عليكما مراعاتُهم، وتعظيمُهم، وبرهم، وإكرامهم، ومواصلتهم! فقد رُوي عن عبد اللّـه بن عمر أنه حدَّث عن النبي ﷺ أنه قال: « **إن أبر البر أن يصل الرجلُ أهلَ وُدِّ أبيه!** »[1].

ثم إخوانكما، عاملاهم بالإخلاص والإكرام، وقضاء الحقوق، والتجافي عن الذنوب، والكتمان للأسرار.

وإياكما أن تُحدِّثَا أنفسَكما أن تنتظرا مقارضة ممن أحسنتما إليه، وأنعمتما عليه، فإن انتظار المقارضة تمسح الصنيعة، وتعيد الأفعالَ الرفيعةَ وَضِيعَةً! وتَقْلِبُ الشكرَ ذمًّا، والحمدَ مَقْتًا!

ولا يجب أن تعتمدا معاداة أحد، واعتمدا التحرز من كل أحد..! فمن قصدكما بمطالبته، أو تكرر عليكما بأذية؛ فلا تقارضاه جهدكما، والتزما الصبر له ما استطعتما! فما التزم أحد الصبر والحلم إلا عَزَّ ونُصِرَ، ومن ﴿ بُغِيَ عَلَيْـهِ ﴾ [الحج: ٦٠] [٨/ ب] ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٦٠].

وقد استعملتُ هذا بفضل اللّـه مرارًا، فحمدت العاقبة، واغتبطت بالكف عن المقارضة.

ولا تستعظما من حوادث الأيام شيئًا، فكلُّ أمر ينقرض

(1) رواه مسلم (٨/ ٦).

حقيرٌ، وكل كبير لا يدوم صغيرٌ، وكل أمر ينقضي قصيرٌ، وانتظرا الفرج، فإن انتظار الفرج عبادة[1].

وعَلِّقَا رجاءَكما بربكما، وتوكلا عليه؛ فإن التوكل عليه سعادة

واستعينا بالدعاء، والجآ إليه في البأساء والضراء؛ فإن الدعاء سفينةٌ لا تَعْطَب، وحِزْبٌ لا يُغْلَب، وجند لا يهرب.

وإياكما أن تستحيلا عن هذا المذهب، أو تعتقدا غيره، أو تتعلقا بسواه؛ فتهلكا! وتخسرا الدين والدنيا!

وربما دعوتما في شيء فنالكما مع الدعاء مَعَرَّةٌ، أو وصلت إليكما مضرة؛ فازدادا حرصًا على الدعاء! ورغبةً في الإخلاص والتضرع والبكاء! فإن ما نالكما من المضرة؛ بما سَلَفَ من ذنوبِكُما! واكتسبتماه من سيئ أعمالكما! ومع ذلك فالذي ألهمكما إلى الدعاء ووفقكما؛ لا بد أن يحسن العاقبةَ لكما! وقد نجاكما بدعائكما من الكثير، وصرف به عنكما من البلاء الكبير.

وإذا أنعم عليكما ربُّكما بنعمة؛ فَتَلَقَّيَاهَا بالإكرام لها،

(1) روى الترمذي في جامعه عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا: « سلوا اللّـه من فضله! فإن اللّـه يحب أن يسأل من فضله، وأفضل العبادة انتظار الفرج »، وحسنه الحافظ ابن حجر كما في المقاصد الحسنة للسخاوي (ص: ٩٩)، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع الصغير، حديث رقم : (٣٢٧٨).

والشكر عليها، والمساهمة فيها، واجعلاها عونًا على طاعته، وسببًا إلى عبادته.

والحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ أنْ تُهينا نعمةَ ربِّكما! فتركَكما مَذْمُومَيْنِ، وتزول عنكما مَمْقُوتَيْنِ! رُوي عن النبيﷺ أنه قال: « يا عائشة! أحسني جِوَارَ نِعَمِ اللّـه تعالى؛ فإنها قَلَّ [٩/ أ] ما زَالَتْ عن قومٍ فَعَادَتْ إليهم! »[١].

وإياكما أن تُطْغِيَكُما النعمةُ؛ فتقصرا عن شكرها، أو تنسيا حقها، أو تظنا أنكما نِلْتُماها بسعيكما، أو وصلتما إليها باجتهادكما، فتعود نقمةً مؤذية، وبليةً عظيمة.

وعليكما بطاعة مَنْ وَلَّاهُ اللّـه أمْرَكُما فيما لا معصيةَ فيه للّـه تعالى، فإنَّ طاعتَه من أفضل ما تتمسكان به، وتعتصمان به ممن عاداكما.

وإياكما والتعريضَ للخلاف لهم، والقيامِ عليهم! فإن هذا فيه العطب العاجل، والخزي الآجل!

ولو ظَفِرْتُما في خلافكما، ونَفَذْتُما فيما حاولتما؛ لكان ذلك سبب هلاككما؛ لـِمَا تكتسبانه من المآثم، وتُحْدِثانِ على الناس

---

(١) ابن ماجه بلفظ: « يا عائشة أكرمي كريمًا فإنها ما نفرت لاعن قوم قط فعادت إليهم »، وابن أبي الدنيا في الشكر، وضَعَّفَ الحافظ البوصيري إسناد هذا الحديث في زوائده، وورد بلفظ آخر، هو: « أحسنوا جوار نعم اللّـه لا تنفروها! فقلما زالت عن قوم فعادت إليهم! » (ع عد) عن أنس (هب) عن عائشة، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير، حديث رقم : (٢٠٤).

من الحوادث والعظائم!

ثم من سعيتما له ووثقتما به لا يُقَدِّمُ شيئًا على إهلاككما، والراحة منكما! فإنه لا يَأْمَنُ مِنْ أن تُحْدِثَا عليه ما أحدثتما له، وتنهضان بغيره كما نهضتما به!

فالتزما الطاعةَ وملازمةَ الجماعة! فإن السلطانَ الجائرَ الظالمَ أرفقُ بالناس من الفتنة! وانطلاق الأيدي والألسنة!

فإنْ رابكما أمرٌ ممن وُلِّيَ عليكما، أو وصلتْ منه أَذِيَّةٌ إليكما؛ فاصبرا، وانقبضا، وتحيلا لِصَرْفِ ذلك عنكما بالاستنزال، والاحتيال، والإجمال! وإلا فاخرجا عن بلده إلى أن تصلح لكما جهتُه، وتعود إلى الإحسان إليكما نيتُه.

وإياكما وكثرةَ التظلم منه، والتعرضَ لذكره بقبيحٍ يُؤْثَرُ عنه! فإن ذلك [٩ / ب] لا يزيده إلا حَنَقًا وبَغْضَةً فيكما، ورِضًى بانفراده بكما!

وابْدَءَا - بعد سَدِّ هذه الأبواب عنكما - بترك منافسة من نافسكما! ومطالبة من طالبكما! فإنه قد يبدأ بهذه المعاني من يعتقد أنه لا يتوصل منها إلى محظور، ولا يتشبَّث منها بمكروه، ثم يفضي الأمر على ما لا يريده ولا يعتمده من مخالفة الرئيس الذي يقهر من ناوأه، ويغلب من غالبه وعاداه.

وإن رأيتما أحدًا قد خالف من وُلِّيَ عليه، أو قام على من أُسْنِدَ أَمْرُهُ إليه؛ فلا تَرْضَيَا فِعْلَهُ، وانقبضا منه، وأغلقا على أنفسكما الأبواب، واقطعا بينكما وبينه الأسباب، حتى تنجلي الفتنة، وتنقضي المحنة.

[التحذير من الدنيا وحطامها]:

وإياكما والاستكثار من الدنيا وحطامها، وعليكما بالتوسط فيها، والكفاف الصالح الوافر منها؛ فإن الجمع لها والاستكثار منها - مع ما فيه من الشُّغْلِ بها، والشَّغَب بالنظر فيها - يصرف وجوهَ الحَسَدِ إلى صاحبها، والطمع إلى جامعها، والحَنَقِ على المنفرد بها.

فالسلطانُ يتمنَّى أن يزل زَلَّةً يتسبب بها إلى أَخْذِ ما عَظُمَ في نفسه من ماله! والفاسقُ مُرْصِدٌ لخيانته واغتياله! والصالحُ ذَامٌّ له على استكثاره منه واحتفاله! يخاف عليه صديقُه وحميمُه، ويُبغضه من أجله أخوه وشقيقه، إنْ مَنَعَهُ لم يُعْدِمْ لَائِمًا، وإن بَذَلَهُ لم يجد راضيًا!

ومَنْ رُزِقَ منكما مالًا فلا يجعل في الأصولِ إلا أقلَّه[1]، فإنَّ شَغَبَهَا طويل، وصاحبَها [١٠ / أ] ذَلِيلٌ! وليستْ بمالٍ على الحقيقة، إن تَغَلَّبَ على الجهة عَدُوٌّ حَالَ بينه وبينها! وإن

---

(١) أي: الأراضي والعقارات.

احتاج إلى الانتقال عنها تَرَكَهَا، أو ترك أكثرَها.

ومَنْ احتاج منكما فَلْيُجْمِلْ في الطلب! فإنه لا يفوتُه ما قُدِّرَ له، ولا يُدْرِكُ ما لم يُقَدَّرْ له!

وقَدْ ذَكَرَ اللّـه تعالى مَا وَعَظَ به العبدُ الصالحُ ابنَهُ في مثل هذا، فقال: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

[ضوابط صحبة السلطان وتقلد الولايات، والتحذير من ذلك لغير مصلحة شرعية]:

واجتنبا صحبةَ السلطان ما استطعتما! وتَحَرَّيَا البعد منه ما أمكنكما! فإنَّ البعد منه أفضل من العز بالقرب منه! فإنَّ صاحب السلطان خائفٌ لا يَأْمَنُ، وخائن لا يُؤْمَنُ، ومُسِيءٌ إنْ أَحْسَنَ، يُخَافُ منه، ويُخَاف بسببه، ويتهمه الناس من أجله! إنْ قُرِّبَ فُتِن، وإن أُبْعِدَ أُحْزِنَ! يحسدك الصديقُ على رضاه إذا رَضِيَ، ويتبرأ منك ولدُك ووالِدُك إذا سخط! ويَكْثُرُ لائموك إن مَنَعَ، ويَقِلُّ شاكروك إذا شَبَّعَ!

فهذه حال السلامة معه، ولا سبيل إلى السلامة ممن يأتي بعده.

فإن امْتُحِنَ أحدُكم بصحبته، أو دعته إلى ذلك ضرورة؛

فليتقلل من المال والحال، ولا يغتب عنده أحدًا، ولا يطالب عنده بشرًا، ولا يعص له في المعروف أمرًا، ولا يَسْتَـزِلَّهُ إلى معصية اللّـه تعالى؛ فإنه يطلبه بمثلها! ويصير عنده من أهلها! وإن حظي عنده بمثلها في الظاهر؛ [١٠/ ب] فإنَّ نفسه تمقتُه في الباطن!

ولا يرغب أحدُكما في أن يكون أرفعَ الناس درجةً، وأتمهم جَاهًا، وأعلاهم منـزلةً؛ فإن تلك حالٌ لا يسلم صاحبُها، ودرجةٌ لا يثبت من احتلها!

وأسْلَمُ الطبقاتِ الطبقةُ المتوسطة، لا تُهْتَضَمُ مِن دَعَةٍ، ولا تُرْمَقُ من رِفْعَةٍ.

ومِنْ عَيْبِ الدرجة العليا أنَّ صاحبها لا يرجو المزيد، ولكنه يخاف النقص! و [صاحب] الدرجة الوسطى يرجو الازدياد، وبينها وبين المخاوف حجاب. فاجعلا بين أيديكما درجةً يشتغل بها الحسودُ عنكما، ويرجوها الصديق لكما.

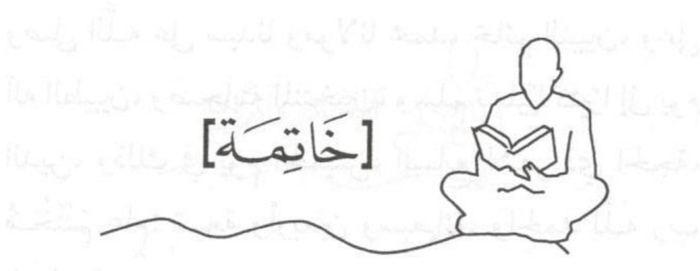
ولا يَطْلُبْ أحدُكما وِلَايَةً، فإنَّ طَلَبَهَا شَيْنٌ، وتَرْكَها لِمَنْ دُعِيَ إليها زَيْنٌ. فمن امْتُحِنَ بها منكما فلْتَـكُنْ حالُه في نفسه أرفعَ مِنْ أنْ تُحْدِثَ فيه بَأْوًا[١]، أو يُبْدِيَ بها زَهْوًا! ولْيَعْلَمْ أن

---

(١) جاء في لسان العرب مادة « بأي »: (البَأْواء، يُمَدُّ ويُقْصَرُ: وهي العَظَمَةُ، والبَأْوُ: مثله، وبَأَى عَلَـيهِمْ يَبْأَى بَأْوًا (...): فَخَرَ، والبَأْوُ: الكِبْرُ والفخر، بَأَيْت علـيهم أَبْأَى بَأْيًا: فَخَرْت علـيهم، لغةٌ فـي بَأَوْت علـى القوم أَبْأَى بَأْوا).

الولاية لا تزيده رفعةً، ولكنها فتنةٌ ومحنة، وأنه مُعَرَّضٌ لأحد أمرين: إما أن يُعْزَلَ فيعود إلى حالته، أو يَسِيءَ استدامةُ ولايتِه؛ فيقبح ذكره، ويثقلُ وِزْرُه! وإنْ استوت عنده ولايتُه وعزلُه كان جديرًا أن يستديم العملَ؛ فيبلغ الأملَ، أو يُعْزَلُ لإحسانِه، فلا يَحُطُّ ذلك من مكانه.

وأَقِلَّا ممازحَةَ الإخوان وملابستهم، والمتابعة في الاسترسال معهم، فإن الأعداء أكثر ممن هذه صفته، وقلَّ من يعاديك ممن لا يعرفك ولا تعرفه.



فهذا الذي يجب أن تمتثلاه وتلتزماه، ولا تتركاه لعَرَضٍ ولا لوجهِ طَمَعٍ! فربما [١١ / أ] عَرَضَ وجهُ أمْرٍ يروق، فيستزل عن الحقائق بغير تحقيق، وآخِرُهُ يُظهِرُ مِنْ سُوءِ العاقبة مَا يُوجِبُ النَّدَمَ حيث لا ينفع، ويُتمنى له التلافي فلا يمكن!

فإن فَقَدْتُمَا وصيتي هذه، ونسيتما معناها؛ فعليكما بما ذكر اللّـه تعالى في وصية لقمان لابنه، فإن فيها جماع الخير، وهي: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ۝١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٧ - ١٩].

وإني لأوصيكما، وأَعْلَمُ أني لن أُغْنِي عنكما من اللّـه شيئًا! ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٧]، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وجاء في آخر المخطوط:

(كَمُلَتْ « الوصية » المباركة، والحمد للّـه رب العالمين،

وصلى اللّـه على سيدنا ومولانا محمد، خاتم النبيين، وعلى آله الطيبين، وصحابته المنتخبين، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، وذلك في يوم الخميس، السابع لشهر ذي الحجة، مُـخْتَتَمَ عامِ: تسعة وأربعين وسبعمائة، والحمد للّـه رب العالمين).

***

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِع

١- القرآن الكريم.

٢- اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي، بتحقيق العلامة محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الرابعة: (١٣٩٧هـ).

٣- الفطرية: بعثة التجديد المقبلة، تأليف فريد الأنصاري، دار السلام بالقاهرة.

٤- بلاغ الرسالة القرآنية، تأليف فريد الأنصاري، دار السلام بالقاهرة.

٥- البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، تأليف فريد الأنصاري، دار السلام بالقاهرة.

٦- الترغيب والترهيب لأبي محمد عبد العظيم المنذري، تحقيق إبراهيم شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى: (١٤١٧هـ).

٧- جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي النمري، تحقيق الأستاذ فواز أحمد زمرلي،

نشر مؤسسة الريان ودار ابن حزم، بيروت. ط. أولى: (١٤٢٤هـ).

٨- جامع العلوم والحكم، لأبي الفرج عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت، ط. الأولى: (١٤٠٨ هـ).

٩- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد اللّـه القرطبي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠- جمالية الدين، تأليف فريد الأنصاري، دار السلام بالقاهرة.

١١- حلية الأولياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد اللّـه الأصبهاني، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الرابعة: (١٤٠٥هـ).

١٢- الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، لابن فرحون المالكي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للعلامة محمد ناصر الدين الألباني، نشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد، الرياض، ط: الأولى: (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

١٤- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى

الترمذي السلمي، تحقيق أحمد شاكر وآخرين، نشر دار إحياء التراث العربي.

١٥- سنن الدارمي لأبي محمد عبد اللّـه الدارمي، تحقيق فؤاد أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الأولى: (١٤٠٧هـ).

١٦- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين الذهبي، نشر دار الفكر، بيروت.

١٧- شرح النووي على صحيح مسلم، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. الثانية: (١٣٩٢هـ).

١٨- صحيح البخاري، للإمام أبي عبد اللّـه محمد ابن إسماعيل البخاري، شرح وتحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم بيروت، ط. الأولى: (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

١٩- صحيح الجامع الصغير وزياداته، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط الثالثة: (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

٢٠- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث بالقاهرة، ط. الأولى: (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م).

٢١- ضعيف الجامع الصغير، للإمام محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.

٢٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن حجر العسقلاني، نشر دار المعرفة، بيروت: (١٣٧١هـ)، بتحقيق الشيخين: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب.

٢٣- الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب. دراسة في التدافع الاجتماعي، فريد الأنصاري، منشورات الفرقان الدار البيضاء، (سلسلة: اخترت لكم، رقم: ٣) مطبعة النجاح الجديدة، ط. الأولى: (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

٢٤- كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، تحقيق أحمد القلاش، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الرابعة: (١٤٠٥هـ).

٢٥- لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر بيروت.

٢٦- مجالس القرآن، تأليف فريد الأنصاري، دار السلام بالقاهرة.

٢٧- مجمع الزوائد للإمام علي بن أبي بكر الهيثمي، نشر دار الريان للتراث، القاهرة، ودار الكتاب العربي، بيروت: (١٤٠٧هـ).

٢٨- مجموع فتاوى ابن تيمية، لشيخ الإسلام أحمد

ابن عبد الحليم بن تيمية الحراني، نشر دار عالم الكتب، الرياض.

٢٩- المحدث الفاصل للحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي: (٢٢٠، ٢٢١)، نشر دار الفكر، بيروت، تحقيق محمد عجاج الخطيب، ط. الثالثة: (١٤٠٤هـ).

٣٠- مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين للإمام ابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، توزيع دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء، المغرب.

٣١- المسند للإمام أحمد بن حنبل، بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط، نشر مؤسسة قرطبة، القاهرة.

٣٢- المصطلح الأصولي عند الشاطبي، تأليف فريد الأنصاري، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بأميركا، ومعهد الدراسات الإسلامية بفاس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

٣٣- الموافقات للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، بشرح الشيخ عبد اللّـه دراز، نشر دار المعرفة، بيروت، ط. الثانية: (١٣٩٥/ ١٩٧٥).

٣٤- الموطأ للإمام مالك بن أنس، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار إحياء التراث العربي، مصر.

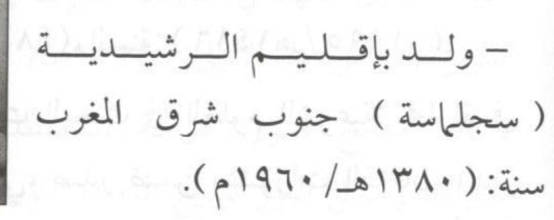
٣٥- ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، نشر دار

الكتب العلمية، بيروت، ط. أولى: (١٩٩٥م)، تحقيق الشيخين: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود.

٣٦- وصية الإمام الحافظ أبي الوليد الباجي لولديه، اعتنى بها الأستاذ جلال علي الجهاني، نشر مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت، ط. الأولى: (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

***

نبذة عن المؤلف



- فريد الأنصاري.

- ولد بإقليم الرشيدية (سجلماسة) جنوب شرق المغرب سنة: (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م).

- حاصل على دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب المحمدية- المغرب.

- حاصل على دبلوم الدراسات العليا « دكتوراه السلك الثالث » في الدراسات الإسلامية تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب- الرباط.

- حاصل على دبلوم الدراسات الجامعية العليا (نظام تكوين المكونين) « الماجستير » في الدراسات الإسلامية- تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب- الرباط.

- حاصل على الإجازة في الدراسات الإسلامية من

جامعة السلطان محمد بن عبد اللّـه، كلية الآداب - فاس - المغرب.

- **صدر له من الدراسات العلمية:**

١- التوحيد والوساطة في التربية الدعوية - الجزء الأول والثاني- نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، صدر ضمن سلسلة كتاب الأمة القطرية بالعددين: (٤٧، ٤٨)، السنة: (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).

٢- أبجديات البحث في العلوم الشرعية: محاولة في التأصيل المنهجي، صدر ضمن منشورات الفرقان، الدار البيضاء: (١٩٩٧م).

٣- قناديل الصلاة «كتاب في المقاصد الجمالية للصلاة»، دار السلام، بالقاهرة: (٢٠٠٩م).

٤- المصطلح الأصولي عند الشاطبي (أطروحة دكتوراه) نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، ط. الأولى: (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).

٥- الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب: دراسة في التدافع الاجتماعي، منشورات الفرقان الدار البيضاء، ط. الأولى: (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

٦- بلاغ الرسالة القرآنية، دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م).

٧- سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة منشورات ألوان مغربية، الطبعة الأولى، الرباط - طوب بريس: ٢٠٠٣م).

٨- ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى اللّـه، مطبعة أنفوبرانت فاس، ط. الأولى: (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

٩- مفاتح النور: دراسة للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي، نشر مركز النور للدراسات والبحوث بإستنبول بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة نيسل بإستنبول، ط. أولى: (٢٠٠٤م).

١٠- مجالس القرآن: مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ، دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م).

١١- جمالية الدين: معارج القلب إلى حياة الروح، دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م).

١٢- الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب، مطبعة الكلمة، مكناس/ المغرب، ط. الأولى: (٢٠٠٧م).

١٣- الفطرية بعثة التجديد المقبلة: من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام، دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م).

١٤- البيان الدعوي وظاهرة التضخيم السياسي، دار السلام، بالقاهرة: (٢٠٠٩م).

- ومن الأعمال الأدبية:

١- ديوان القصائد: شعر، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء: (١٩٩٢م).

٢- الوعد: شعر، مطبعة أنفوبرانت، فاس: (١٩٩٧م).

٣- جداول الروح: شعر، مشترك مع الشاعر المغربي عبد الناصر لقاح، مطبعة سندي، مكناس: (١٩٩٧م).

٤- ديوان الإشارات، طبع دار النجاح الجديدة، منشورات الدفاع الثقافي بالمغرب: (١٩٩٩م).

٥- كشف المحجوب: رواية، مطبعة أنفوبرانت، فاس: (١٩٩٩م).

٦- آخر الفرسان: رواية، نشر دار النيل، إسطنبول: (٢٠٠٦م).

***

ملحوظة

تُطلب جميع كتبنا في طبعاتها الجديدة والمنقحة، من

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بالقاهرة

ووكلائها في العالم العربي

فريد الأنصاري